المشرق
بيروت
تشرين الاول ١٩٣٠

# البطريرك بولس مسعد

## ١٨٠٦ – ١٨٩٠

بقلم سيادة المطران اغوسطين البستاني

وقفنا في هذه الاثناء على ترجمة السعيد الذكر البطريرك بولس مسعد ، كتبها سنة ١٩٠٤ الاب اغوسطين البستاني الثالب العام في الرهبانية الحلبية اللبنانية المارونية ( هو سيادة المطران اغوسطين البستاني رئيس اساقفة صيدا الحالي ) فاستأذنا سيادته بنشرها في « المشرق » فاذن بكل ارتياح ؛ واخبرنا انه بعد ان انتهى من وضعها عرضها على غبطة السيد مار الياس بطرس الحويك ، البطريرك الحالي الجليل ، وعلى المثلثي الرحمات المطران يوسف نجم ، والمطران يوسف دريان ، النائبين البطريركيين ، والمطران بولس مسعد ، مطران دمشق ، ابن شقيق المترجم ، فوافق جميعهم على صحة رواياتها. (المشرق)

هو بولس بن مبارك بن يوسف زياده بن مسعد بن ابي مسعود خاطر بن ثابت بن خاطر بن داود ابن الشدياق يوسف ابي رعد المسمى خاطر المقدّم في جبة بشري ابن الشدياق شاهين الحصروني من بيت مشروق ابن رعد بن شاهين الذي ارتحلت اولاده من صدد الشرق الى قرية حصرون سنة الف واربعمائة وسبعين ، وكان اصلهم منها ، وغادروها زمناً بسبب ما كان حاصلاً في نواحيها

من الظلم والشغب ؛ ثمّ عادوا اليها حين خيّم في ربوعها الامن والسلام. وسنة الف وستمائة وثلاث عشرة انتقل خاطر وبعض اقاربه الى مزرعة بيت قصاص في جبة المنيطرة . وسنة الف وستمائة وخمسين رحل عنها الى بلاد كسروان ، فتوطن قرية عشقوت ،حيث وُلد هذا البطريرك العظيم في اوائل شهر شباط سنة ١٨٠٦ ، فارضعه والداه افاويق الفضيلة والتقى ، ونشّأاه على الآداب المسيحية. ولما ميطت تمائمه ، واتقن درس مبادئ اللغتين العربية والسريانية ، ادخلاه مدرسة الرومية ، ثمّ مدرسة عين طورا المارونية ، فدرس اصول اللغتين اللاتينية والايطالية على المرحوم الخوري انطون عريضه البشراني . ثم نقلاه الى مدرسة عين ورقه الشهيرة ، فتلقن اللغتين العربية والسريانية بفروعهما ، واعرب هناك عن فطنة رائعة استلفتت انظار اوليائه اليه واكسبته رضى السعيد الذكر البطريرك يوسف حبيش الذي ، لمّا زار هذه المدرسة وظهرت له نجابة المترجَم وتفوّقه على اقرانه فضيلة وعلماً ، رقّاه الى درجتي المرتل والقارئ في ١٩ نيسان سنة ١٨٢٤ ، ثم الى درجة الشمعداني في ٢٠ ايار من السنة نفسها.

وسنة ١٨٢٦ ارسله الى مدرسة مجمع نشر الايمان المقدس برومية العظمى لتلقي العلوم اللاهوتية والفلسفية والرياضية والقانونية والتاريخية ؛ فسعى وراء تحصيلها بجدّ وانصباب وصبر حتى جمع أوابدها وشواردها وادرك اعمق اسرارها واقصى غاياتها ، وفاز بخصل السبق على اترابه ، ونال اسمى حظوة في عيون رؤساء المدرسة واساتذتها الذين قد طالما جاهروا بالثناء عليه معجبين بحدة ذهنه وقوة عارضته وتنافسه في حفظ القوانين المدرسية . وكان اذ ذاك البطريرك يوسف حبيش يكلّفه قضاء بعض اموره لدى المجمع المقدس ، فكان يقوم بالمهمة بمزيد الفطنة والنشاط ، كما تشير الى ذلك الرسائل المتبادلة بينه وبين البطريرك المشار اليه ، ولا يزال بعضها محفوظاً في خزانة البطريركية المارونية ، والبعض الآخر في مدرسة القديسين بطرس وبولس بعشقوت.

وفي سنة ١٨٣٠ اذ اتمّ علومه وشُهد بكفائته التامة ، ألمّ به داء مزعج ، فاستدعاه البطريرك يوسف حبيش الى لبنان ، فامتثل اشارته ، فودّعه اساتذته بحرارة النفس وهنأوه بنجاحه الباهر ، ودعوا له بالشفاء التام العاجل ، وأودعوه ما

هو اهله من كلمات المدح وادلّـة الرضى ، واتحفه بعض السادة الكرادلـة بكتب نفيسة لأئمة العلماء الشرقيين والغربيين عربون العطف والاكرام . ولما بلغ المقر البطريركي في لبنان تلقاه ابوه البطريرك يوسف حبيش بمنتهى الانس والترحاب ، وما لبث ان رقاه الى الدرجة الكهنوتية في ١٣ حزيران من السنة نفسها ، وعيّنه كاتباً لاسراره ؛ فقام باعباء هذه الوظيفة أحسن قيام مبرهناً في الاشغال على اختلافها عن سعة اطلاعه في العلم ، ودقّة نظره في حلّ المشاكل ، وشدة حرصه على حقوق طائفته . واشتهر بطهارتـه الملائكية ، وفضائله الراسخة ، وتجرّده عن الاميال البشرية والاغراض الذاتية ، وصدق امانتـه ووفائه لمخدومه البطريرك الموما اليه الذي اولاه كل ثقته لما تجلّى لـه فيه بالاختبار من طيب الفطرة وصفاء الجوهر واستقامة القصد .

وفي ٢٨ آذار سنة ١٨٤١ رقـاه عن كل جدارة واستحقاق الى درجـة الاسقفية المقدسة في كنيسة دير مار جرجس علما ، وجعلـه مطراناً شرفياً على طرسوس ونائباً روحياً له ، متوسماً فيه خيراً عظيماً للطائفة وملاذاً حريزاً لها في مستقبل الايام . فأخذ عندئـذٍ يجول في انحاء الابرشية البطريركية يوزّع الاسرار ، ويصدع بكلمة الحقّ ، ويمهد المصاعب والعراقيل بين ابنائها في ما بقي من ايام البطريرك يوسف حبيش ، وفي عهد خلفه الحميد الذكر البطريرك يوسف الخازن . ومع ما كان يتنازعه من مثل هذه الشواغل المهمة ، وينتابه من الامراض المزعجة ، لم يكن يحجم عن وضع الكتب المفيـدة والرسائل المعتبرة تأييداً لتعليم الكنيسة الرومانية المقدسة ومحاماة عن شرف طائفتـه ، فألّف في تلك الاثناء كتابه « الـدرّ المنظوم » ، وهو سفر نفيس تضمن من الشروح الضافية في تاريخ الشرق القديم والحديث ، والبراهين الساطعة والحجج الدامغة في شرف الطائفة المارونية واستمرارها الدائم على الايمان الكاثوليكي الروماني القويم ودحض مزاعم خصومها ، ما هو السحر الحلال واغلى من اللآلئ الغوال . وقد ذاع امر هذا الكتاب في الشرق والغرب ، فاقبل العلماء الاعلام على اقتنائه وادّخار فوائده ، وانزلوه بين الكتب التاريخية ارفـع منزلة من الاعتبار ، واصبح مرجعهم في اكثر الحوادث المتعلقة بتاريخ الشرق ومعوّلهم

بتاريخ الطائفة المارونية . ثم كتابه « دحض رسالة فتح الله مرّاش » يوضح به انبثاق الروح القدس من الآب والابن باجلى عبارة واقوى برهان. وايضاً كتابه في المحاماة عن بتولية سيدتنا القديسة مريم والدة الله سماه « النجمة الغرّاء في تثبيت بتولية مريم العذراء » ، وغير ذلك من المقالات الرائعة ، وكلها تعلن غزارة مادته ، وسموّ عقله ، وسلامة ذوقه في اساليب الكلام وفنونه ، واستقامة مسلكه في فن الجدال وآداب المناظرة ، ومهارته في معرفة حقائق التاريخ ووقائعه.

* ٥ *

في الثالث من شهر تشرين الثاني سنة ١٨٥٤ رقد بالرب البطريرك يوسف الخازن ، فاجتمع مطارنة الطائفة لاختيار خلف له . فاجمع رأيهم واتفقت كلمتهم على المطران بولس مسعد المترجم له ، فرفعوه الى السدة البطريركية الجليلة بالصوت الحي في الثاني عشر من الشهر المذكور والسنة نفسها . فابتهجت ابناء الطائفة بهذا الانتخاب المقدس ، وعلقوا على بطريركهم هذا الجديد آمالاً عظيمة لما عُرف به من السجايا العالية والمقاصد النبيلة والغيرة النادرة على تعزيز شأن الطائفة وايرادها موارد المجد والسعادة . فاقبل المهنئون من كل صوب ونادٍ الى دير سيدة بكركي ، المقرّ البطريركي الشتوي ، واجروا حفلات شائقة ومظاهرات فرح فخيمة . واثبت انتخابه قداسة الحبر الاعظم البابا بيوس التاسع بموجب براءة رسولية مؤرخة في ٢٣ آذار سنة ١٨٥٥ ، وانعم عليه بالباليون ، اي الدرع المقدس ، على يد معتمده القس امبروسيوس نطّين الدرعوني ، رئيس دير القديس انطونيوس الكبير برومية للرهبانية الحلبية اللبنانيـة ، واتحفه المجمع المقدس ببدلة للقداس ثمينة منسوجة كلها بخيوط الذهب والفضة والحرير كُتب على طرفها بحروف ناتئة من الذهب هذه العبارة : « من المجمع المقدس الى البطريرك بولس مسعد ، سنة ١٨٥٥ » . فاستقبل غبطته شارة التثبيت الرسولية في دير القديس يوحنا مارون بالديمان ، المقر البطريركي الصيفي ، ولبسها بحفلة مشهودة جمعت مطارنة الطائفة وامراء ومشايخ واعيان البلاد من كل رتبة ومقام ، وما برحت الالسنة تردّد الى الآن بالفخر والثناء ذكر ذلك

اليوم البهيج ، وما ظهر فيه من ادلة الحب والأجلال لرئيس الطائفة المارونية الاعلى ، وأبدي من كرم الضيافة والترحيب.

وصرف غبطته من ثمّ عنايتــه الى تدبير شؤون الطائفــة ، وتثقيف اكليروسها وتهذيبهم على الفضائل المسيحية والمحامد البشرية والعلوم الصحيحة ليكونوا رعاةً امناء ودعاةً صالحين للشعب الى مراعي الدين الخصيبة . واول عمل رآه مهماً وضرورياً انما هو رفع مقام البطريركية في عيون الخاصة والعامة من كل نحلة وطبقة الى ذرى الكرامة والكمال ، ليتأتى له تنفيذ غاياته المقدسة ونياته الخيرية بدون صدٍّ او معارضة ، واذاعة تعليماته الرسولية على ابنائه بمطلق السلطان المُعطى لصاحب هذا المقام من لدن السيد المسيح له المجد ونائبه على الارض الجالس على السدة البطرسية ، فاقتــدر بفضل حكمته وقداسته على تحقيق بغيته هذه الحميدة ، وجعل المقام البطريركي محبوباً محترماً من الجميع وملاذًا لكل مَن يلجأ اليــه . وقد نهج نهجاً جميلًا في مكاتبة الاساقفــة والرؤساء والكهنة والحكام والامراء والمشايخ وسائر طبقات الشعب ، فتابع بعض الاصطلاحات القديمة التي وجدها موافقة ، ونسخ البعض الآخر منها مما لم يعد لائقاً بمقامه وحالة العصر ، وانشأ غيره على الطريقــة المستحسنة ، وحافظ شديد الحفظ على هذا النهج مدة بطريركيته كلها ، ولا يزال معمولاً به في البطريركية المارونية الى الآن.

وفي ١١ و ١٢ و ١٣ نيسان سنة ١٨٥٦ عقد بامر البابا بيوس التاسع مجمعاً بدير سيدة بكركي سماه «المجمع البلدي» ترأسه ، بالنيابة عن الحبر الاعظم ، سيادة المطران بولس برونوني ، القاصد الرسولي في سورية . وهو احسن واطول مجامع الموارنة بعد المجمع اللبناني . وقد افرغ فيه غبطته كنوز علمه ومعارفه اللاهوتية والتاريخية ، وطبقه على قواعد المجمع اللبنـاني كل التطبيق . ومن يطالعه بدقة وامعان يلقَ من آثار القداسة والدراية والسداد ما يبهج الخواطر ويسلب الالباب.

وعلى اثر هذا المجمع المبارك اذاع التعليمات الكنسية على اكليروس طائفته من كل رتبة ومقام ليجتهدوا في اتمام واجباتهم الرعائية ، حسب نصوص المجمع

اللبناني وسائر المجامع المقدسة . ونشر المراسيم الخلاصية على ابنائه ، الشعب الماروني ، ليقبلوا على ايفاء فروضهم الدينية ، ويحيوا بوحدة المحبة والوئام ، ويحرصوا على جوهرة الايمان القويم التي ورثوها من آبائهم واجدادهم الاماجد سالمة من كل عيب ، ويخلصوا الطاعة للسلطتين الروحية والزمنية ، ويرتبطوا بوثاق الوفاق والوفاء مع من تجمعهم واياهم الوحدة البشرية . وكان يتضوّع من معاني اقواله السامية وارشاداته الناجعة شذا فضائله ويفوح عبير شمائله ؛ وعلمت المراجع العالية وكل من جالسه او طالع مناشيره واوامره ومناهيه انه حبر همام ، وقائد مقدام ، ورسول للسلام ، وعاقد للوئام ، وناشر للخير العام بين الانام.

* * *

وقد جرت على عهده الميمون احداث كثيرة مهمة في هذه البلاد رواها اكثر المؤرخين المعاصرين ، وهي لا تندّ عن اهل العلم والخبرة ؛ ورام البعض من ذوي المآرب الملتوية ان يمسوا جانب هذا البطريرك العظيم ، ويسوّدوا صحيفة حكمته ، ويخطئوا تدابير سياسته ، وكانوا في خلال تلك الحوادث الخطيرة واقفين له بالمرصاد لينالوا من اقواله او من كتاباته امانيهم الساقطة . اما هو فقد علا فوق هذه المصاعب والمحن كالنسر في كبد السماء مواصلاً سيره على مسلك النزاهة والاستقامة بحزم لا يجارى وعزم لا يبارى يليقان بعظماء ارباب الرئاسة وقابضي زمام السياسة ، ولسان حاله يقول : صرت كلاً للكل لأربح الكل . فاقرّ له الحاسدون بسموّ الادراك ، ودقة النظر ، ونزاهة النية ؛ وطأطأوا رؤوسهم اجلالاً لصفاته الفريدة . واصبح المقام البطريركي مطمحاً للابصار والافكار في كل امر عسير ومعضلة شديدة.

فرقيت الطائفة بمدة حبريته معارج النجاح ، وازهرت بالمحاسن والاعمال ، وزين عقدها بخمسة عشر مطراناً رقاهم الى درجة الاسقفية بوضع يده الكريمة ، وكلهم من نخبة اهل الفضيلة والغيرة والعلم وهم : المطران بطرس البستاني ، مطران صور وصيدا – المطران يوسف المريض ، مطران عرقا شرفاً والنائب البطريركي – المطران بطرس مسعد ، مطران حماه شرفاً والنائب البطريركي –

المطران يوحنا الحاج ، مطران بعلبك « الذي خلفه في البطريركية » — المطران يوسف فريفر ، مطران اللاذقية شرفاً ووكيل غبطته على ابرشية البترون — المطران يوسف الدبس ، مطران بيروت — المطران نعمةالله الدحداح ، مطران دمشق — المطران امبروسيوس نطين الدرعوني ( رقاه الكردينال فرنكه رئيس مجمع نشر الايمان المقدس مطراناً على اذنه شرفاً ) — المطران اسطفان عواد ، مطران طرابلس — المطران يوسف الزغبي ، مطران قبرس — المطران يوسف مسعد ، مطران عكا شرفاً والنائب البطريركي — المطران بولس حكيم ، مطران حلب المطران الياس الحويك ، مطران عرقا شرفاً والنائب البطريركي ( بطريركنا الحالي ) — المطران يوحنا الحبيب ، مطران الناصرة شرفاً — المطران يوسف نجم ، مطران عكا شرفاً والنائب البطريركي — المطران بولس مسعد ، مطران حماه شرفاً والنائب البطريركي.

وقد انشأ للبطريركية مكتبة حوت انفس الكتب الخطية والمطبوعة ، قديمة وحديثة ، في كل فن ومعنى لاشهر علماء الغرب والشرق ؛ وجمع شتات البرآت الرسولية الصادرة من لدن الاحبار الاعظمين الى بطاركة الطائفة واودعها سجلاً مخصوصاً بغاية الترتيب والنظام ؛ ودوّن ايضاً في سجلات عامة كلّ ما صدر عن البطريركية من الكتابات الرسمية والاحكام القانونية. وذلك اثر جميل اغنى البطريركية في المواد التاريخية والاصطلاحات المتعارفة بينها وبين الذين لهم علاقة معها ، وبين الخاضعين لسلطانها . ثمّ اجرى اصلاحات مهمة في المقرّ البطريركي في بكركي ، وفي الديمان ، واتقنه بالاثاث الفاخر . وصرف اهتمامه الى شراء الارزاق ، فانفق في هذا السبيل نحواً من خمسة وثلاثين الف ليرة ذهباً ، فضلاً عما كان يبذله من الاموال الطائلة احساناً لذوي البأساء واسعافاً للمشروعات الخيرية. واشتهر بكرم الضيافة وعزة النفس وبسطة اليد ، فكان كل من يؤمّ الدار البطريركية من حكام وامراء وخاصة وعامة يعجب مما يجد من السخاء ، ولاسيما ابان طروء البلايا في لبنان من حرب وثورة ومجاعة ، اذ كانت الجموع الغفيرة تتألب زرافات زرافات سحابة النهار وسواد الليل ليشبعوا جوعهم ويكسوا اجسامهم ، وينابيع الجود تتدفق عليهم من يدي ذاك

الاب الشفيق بكل لطف وحنان ، وهـذه مزية امتاز بها ايضاً هذا الرجل العجيب حتى ضُرب المثل في جوده وكرمه .

* * *

وعرفت الدولة العثمانية سجاياه الشريفة ، فحباه سنة ١٨٦٦ السلطان عبد العزيز خان الوسام المجيدي من طبقته الاولى . وفي السنة نفسها انعم عليه نابليون الثالث ، امبراطور فرنسة ، بوسام جوقة الشرف . وسنة ١٨٦١ اهدت اليه جمعية الفنون في ليون حلةً للقداس هي آية في الصناعة والنفاسة لما حوت من النقوش البديعة والحجارة الكريمة .

وقد اختبر الكرسي الرسولي الرفيع الشأن رجاحة عقله واصالة رأيه ، وخضوعه العميق لمراسيمه وطاعته القلبية لتعليماته ، فاغزر عليه كلمات المدح والثناء وتناهى في رعايته واكرامه ، واستمرت صلاته مع المجمع المقدس مدة حبريته الطويلة تزداد مع الايام توثقاً واستحكاماً . ومما يُذكر فيؤثر انه في ايام بطريركيته لم يُنقض له حكم من المجمع المقدس ولم يرد عليه كلمة لوم او توبيخ ، بل لبثت حتى موته مراسلة هذا المجمع محلاة بعبارات الرضى والارتياح . وقد جرى بينه وبين المجمع المشار اليه بعض مفاوضات فيما يتعلق ببعض الحقوق البطريركية ، فكان اربابه يندهشون من وفرة تحقيقاته التاريخية واستدراكاته الدقيقة واساليبه اللطيفة المقرونة ابداً بتمام الخضوع والاخلاص . ولم يغفل عن تأييد جانب الرسالات الكاثوليكية وتكريم فعلتها المرسلين الغيورين ، بل امتاز بحسن الالتفات اليهم وطيب الثناء عليهم ومدح اعمالهم المجردة لمجد الله وخير الكنيسة ، مبلغاً اليهم في كثير من الفرص اجل تنشيط وتقريظ . ونظن ان هؤلاء المرسلين الافاضل لا يزالون يشعرون بمفاعيل تلك العواطف السامية .

* * *

وسنة ١٨٦٧ دعاه البابا بيوس التاسع لحضور تثبيت القديسين اليابونيين في

العيد القرني لوفاة القديس بطرس هامة الرسل ، فانتهز هذه الفرصة لتجديد وتشديد روابط انتمائه وولائه للكرسي الرسولي . وبعد ان اعدّ معدات السفر زايل مقامه في بكركي في ٢ ايار من السنة نفسها ، مسابقاً انوار الشفق قاصداً بيروت تحت جناح الليل مجانبةً لتظاهرات المجد ومجالي الاحتفال التي كان استعدّ لاستقباله بها اكابر الناس واكارمهم . فبلغ بيروت على حين غرة ، فاكبر العقلاء تواضعه وعظموا فضائله وخفّ ارباب المناصب والرتب والوجهاء للسلام عليه وتأدية فروض الاجلال لذاته الجليلة ، فردّ الزيارات الاكثر وجوباً وركب البحر في العاشر من الشهر المذكور وبخدمته الحبران النبيلان المطران يوحنا الحاج ، مطران بعلبك ، والمطران بطرس البستاني ، مطران صور وصيدا ، والخوري يوحنا حبيب ، مؤسس جمعية المرسلين اللبنانيين ، وكاتم سره الخوري نعمة الله الدحداح ، والخوري يوسف الياس الدبس ، وسمعان طنوس مسعد ، ابن شقيقه ، وجبرائيل الشمالي من سهيله ، مشيعاً بالتبجيل والتكريم من جانب الحكومة ، وقنصلاتو دولة فرنسة ، ومن سراة بيروت ولبنان حتى غصت الشوارع والاسواق بجموع المودّعين . واذ ذاك سارت به وبحاشيته المشار اليها الباخرة اماريكا من شركة المساجيري ماريتيم الفرنساوية . فبلغ رومية العظمى في ٢٩ ايار ، ونزل بدير القديس انطونيوس الكبير للرهبان الحلبيين اللبنانيين الكائن قرب دير مار بطرس في السلاسل ، وتبادل الزيارات مع الكرادلة والبطاركة والمطارنة والرؤساء والاشراف واجتمع بهم في الولائم الفاخرة والمحاضر الحافلة .

وفي الرابع من حزيران حظي وحاشيته بالمثول امام الحبر الاعظم فالتقاه بمزيد الرعاية والاكرام ، واراد ان يعانقه . فابى غبطته احتراماً ، وقبل بنانه الطاهر ، فاجلسه قداسته الى يمينه ، واسمعه ما طاب من الكلام اللطيف ، واهدى اليه بطرشيلاً ثميناً محبوكاً باسلاك الفضة والذهب والحرير وايقونة كبيرة من الذهب الخالص ، وانعم بايقونات مختلفة على سائر حاشيته . وقد حضر بدعوة قداسته سائر الحفلات البيعية التي أُقيمت لتثبيت القديسين اليابونيين ، ولتمجيد هامة الرسل ، ولترقية بعض الاساقفة الى مقام

الكردينالية، ولتكريم بعض الاعياد المشهودة؛ وفي كلها كان مظهرًا للرعاية والاجلال.

ولما اتم مهمته في تلك المدينة الابدية القرار غادرها شاكرًا حامدًا، ويمم باريس، حاضرة المملكة الفرنساوية، فوصل اليها في ٢٣ تموز، وتشرف بمقابلة الامبراطور نابوليون الثالث والامبراطورة اوجيني، فابديا نحو غبطته من ادلة الانس والاكرام ما يليق بمقامه وبشخصه الجليل. وقد قدمت له الامبراطورة نجلها الصغير طالبة منه ان يباركه فباركه، واهدت اليه حلةً للقداس حافلة بالجواهر الكريمة والنسيج الدقيق والوشي البديع.

وبعد ان تبادل الزيارات مع وزراء الدولة وارباب المناصب الدينية، قصد دار السعادة، عاصمة دولتنا العثمانية، فبلغ اليها في ٣٠ آب، فخفّ الى الباخرة صاحب السعادة فرنقو افندي نصرالله كوسا (وقد صار متصرفًا على جبل لبنان) موفدًا من الحكومة السنية لاستقبال غبطته، فانزله بزوارقها الجميلة الى البرّ حيث وجد فريقًا من الجند الشاهاني قائمًا لتحيته، وخمس عجلات معدةً لركوبه، فاستبطنها وحاشيته يواكبه اربعة فرسان اثنان من قبل الحكومة، واثنان من قبل المجلس البلدي، وساروا به الى قصر يكمكجي باشي في البارا، وهو قصر فسيح مزيّن باحسن الرياش، وفيه معبد للقداس بكامل لوازم التقديس، وغرف متقنة، وردهة للاستقبال، وعشرة رجال، وثلاث عجلات معينة للخدمة. فمكث بهذه الدار التي اعدتها له الحكومة مدة اقامته بالاستانة، مغمورًا باحسانات الحضرة السلطانية التي امرت ان يقدم له من قبلها كل ما يلزم من النفقات لتوفير اسباب راحته وكرامته. وفي اليوم الثاني زار عالي باشا، الصدر الاعظم، ومحمد فؤاد باشا، وزير الخارجية، فاوفدا معتمدين ردًا له الزيارة. ثمّ تزاور وسائر الوزراء والسفراء والعظماء وارباب السياسة، فاجلّ جميعهم مقامه. واتحفه بطريرك الروم الارثوذكس بصليب وسلسلة من الذهب المصمت؛ وقدم له ايضًا الكاڤليار بولاكي حوا، احد ابناء طائفته المشهور بالتقى والثراء، صليبًا مرصعًا بالدرر وسلسلة من الذهب دقيقة الصنع.

وفي الحادي عشر من شهر ايلول نال وحاشيته شرف المثول امام السلطان عبد العزيز خان، في سراي طولمه بغچه، فلفظ غبطته خطاباً بديعاً ضمّنه شواعر اخلاصه واحترامه للعرش العثماني، فتنازل السلطان واظهر رضاه وسروره من رؤية غبطته وحاشيته في الاستانة، واعرب عن تقدير صفاته واعماله وامانيه، وشمله بكل رعاية والتفات. وعلى اثر تلك المقابلة، انعم جلالته على حاشية غبطته باوسمة مختلفة الطبقات. ولما كان غبطته حاملاً الوسام المجيدي الاول، اتحفه بحقة سعوط من حجر ثمين مرصعة بالالماس واللآلئ الغالية تساوي قيمتها نحو اربعين الف قرش، قدمها له ساعة الوداع فؤاد باشا.

وبرح غبطته وبطانته الاستانة في ٢٣ ايلول لاهجين بالشكر والثناء، فرست به الباخرة في مياه مدينة طرابلس، في ٣٠ منه. فاستقبل هناك بابهى تظاهرات الفرح والاجلال. وبعد ان تبادل الواجبات المألوفة مع اهل المقامات الرسمية، قصد كرسيه في الديمان تحفّ به الالوف المؤلفة من اكابر البلاد. فحلّ به في الثالث من شهر تشرين الاول على ما يُرام من اليمن والهناء. ومن اراد مزيد بيان في امر هذه الرحلة الميمونة التي احرز بها غبطته له ولطائفته لدى السلطتين الروحية والزمنية ذكراً جميلاً ومجداً رفيعاً، فعليه بمطالعة كتاب «سفر الاخبار في سفر الاحبار» لمؤلفه الخوري يوسف الياس الدبس (المطران يوسف الدبس رئيس اساقفة بيروت) وقد اجتزأنا بالالماع الى ما قلّ فدلّ بقدر ما سمحت هذه النبذة الوجيزة. ولا تزال التحف التي اهديت اليه واتينا بذكرها، محفوظة في خزانة البطريركية المارونية بهجة للناظر واثراً لغبطته من بعده يشهد على الدوام بما اتى الله الطائفة على يده من النعم الوسيمة ورفعة الشأن.

* * *

ومع خطورة مقامه وكثرة شواغله ومهماته، كان ليّن الجانب، دمث الاخلاق، لا يأنف من محادثة الفقير الذليل، ولا يحفل بالكثير دون القليل، يحمي جانب العدل بنفس مملوءة من عواطف الشجاعة والشهامة، ويناهض مَن

يميل عن عمود الحق ويزيغ عن قصد السبيل بلين وجفاء وشدة ورخاء ، شأن الراعي الصالح المخلص الخدمة لربه والمستميت في حفظ رسومه ووصاياه ؛ يتجافى جهوده عن الأبهة الفارغة ، ويأنف من فخفخة اهل العالم ومظاهر مجده الترابية ، ثقةً منه بان شرف الرؤساء انما هو في اتمام واجباتهم الرعائية وتربية الرعايا على الاخلاق الصالحة والفضائل الالهية التي هي مناط السعادة في هذه الدنيا وفي الاخرى. ولذلك كان يُرى بادياً في كل وقتٍ بمظهر الزهد والتجرّد والازدراء بالزخارف والملاذّ الدنيوية ، يقضي اوقات الفراغ بمناجاة ربه بالصلاة اللفظية والعقلية واستمداد أيدهِ وعونه ، ضابطاً حواسّه عن كل ما من شأنه ان يقلق ضميره وراحته الباطنية ، رصيناً مهيباً موقرًا ، بعيدًا عن الهزل والمزاح والحدة والغضب ، رائق الذهن ، سريع الخاطر ، يقظ الفؤاد ، تتجلّى آيات الذكاء والحكمة في عينيه ، وتنبعث انوار الطهارة الملائكية من محيَّاه ، وتتناثر درر العلم والقداسة والادب من شفتيه ، مما يجعل جليسه مفتوناً بكلامه محترماً لمقامه معجباً برقة محاضرته . وقد زاره الملك ميلان ، ملك الصرب ، في اواخر ايامه ، فاورى زند الكرم وبالغ في الاحتفاء بزائره العظيم ، فخرج الملك المشار اليه من الدار البطريركية بهجاً مسرورًا ذاكرًا باجمل التذكارات شهامة مضيفه ، وعزة نفسه ، وصفاء لبه . ولما بلغ الاستانة العلية اوسل اليه تلغرافاً اودعه فائق اعتباره وخالص شكره وثنائه.

وقد خوَّله الله حافظة نادرة قلَّ مَن رُزق مثلها ، فكان يعي في صدره نصوص الشرائع المقدسة والمجامع الخاصة والعامة والرسوم والقوانين الكنسية ، ويتقن كنه معانيها واسرارها ، حتى لم يكن يفوته ذرة من ذلك. واشتهر بمعرفة الحوادث والحروب والتقلّبات السياسية التي جرت في لبنان ، واصول العائلات التي نشأت فيه ورحلت عنه وفروعها وتشعباتها وما جرى عليها من تصاريف الدهر وحسناته ، وكتب الكثير منها في وريقات منثورة لم تساعده الفرص على جمعها ؛ ولولا بحثه وتدقيقه للبثت اكثر عائلات هذه البلاد تجهل اصلها وفصلها ، وهي الآن وفي كل وقت توفيهِ حقه من المديح . وبالجملة فقد كان هذا الحبر ، الذي قلَّ بما رأت مثله عين الزمان ، من آحاد العصر في علمه

وحكمته ، وحجة اهل التاريخ في بلاده ، ومثال الكمال في تقواه وقداسته ، وامام انصار الخير والبرّ في جوده واريحيته ، جمع من المناقب الغراء والمفاخر البيضاء ما قلما يجتمع لافراد الرجال .

قضى نحبه بالرب برائحة القداسة بدير سيدة بكركي في الثامن عشر من شهر نيسان سنة ١٨٩٠ ، ولم يغب عن الصواب الّا ساعتين فقط ، ثمَّ فاضت روحه الكريمة بهدوء وسكينة لم يتخللهما انزعاج ولا اضطراب متمماً واجباته الدينية والقانونية بمنتهى الاخبات والورع عن خمسة وثمانين عاماً احياها كلها في أكمل الخلال واشرف الاعمال . فبكته الطائفة المارونيـة بالدموع السخينة ، وخسرت به زينة احبارها ورافع منارها ومخلد آثارها وفخر رجالها ، وطيرت مناعيه الى المراجع الايجابية الدينيـة والمدنية ، فشمل الحزن عليـه الكبير والصغير ، العالم والامير ، الشريف والحقير ، الغني والفقير . وتقاطرت الجموع الغفيرة الى المقام البطريركي لتأدية فروض التعزية بهذا الخطب الجلل والخسارة العميمة . وتوالت مثلها رسائل البرق من ذوي الحلّ والربط في رومية والاستانة وباريس والقطر المصري وسائر الاصقاع السحيقة . وصُلّي عليه في كنيسة الدير المومأ اليه ، وافاض الخطباء في كلام التأبين ، ثمَّ نُقل جثمانه الطاهر الى مسقط رأسه عشقوت تتقدمه راية الصليب الكريم ، وبعض السادة المطارين ، واعيان البلاد ، وفريق من الجند اللبناني ، وتخفره الوف من اللبنانيين على اختلاف الطوائف والمذاهب . وهناك أُودع الضريح الذي أُعدَّ له بكنيسة القديسين بطرس وبولس المختصة باسرته آل مبارك مسعد ، نفعنا الله بيمن شفاعته وحسن تذكاراته .

# كتاب الشفعة

## من الجامع الكبير في الشروط

## لابي جعفر احمد بن محمد الطحاوي

بقلم الاستاذ الفقيه القانوني جرجس بك صفا
رئيس محكمة استئناف الحقوق والتجارة سابقاً

صاحب هذا الكتاب الامام ابو جعفر الطحاوي اعرف من ان يعرّف ، وهو من العلماء الكبار الاقدمين ، وقد نشر له هذا الكتاب الأستاذ يوسف شخت المستشرق البحّاثة الالماني . وهو في موضوعه من انفس الكتب واوسعها . ولو لم يُعنَ الاستاذ شخت بنشره لبقي مجهولاً ، وربما اندرس في جملة ما اندرس من آثار علماء العرب وتآليفهم . وقبل ان نصف هذا الكتاب وما عاناه الناشر في ضبطه وتصحيحه ، يحسن بنا ان نقدم ترجمة مختصرة لمؤلف الكتاب فنقول :

هو ابو جعفر احمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك الازدي الطحاوي الفقيه الحنفي ، انتهت اليه رئاسة اصحاب الامام الاعظم ابي حنيفة النعمان . وكان ابو جعفر شافعي المذهب يقرأ على المزني[1] ، فقال له يوماً : « والله ، لا جاء منك شيء . » فغضب ابو جعفر من ذلك ، وانتقل الى ابي جعفر بن ابي عمران الحنفي واشتغل عليه . فلما صنف مختصره[2] ، قال : « رحم الله ابا

١) هو ابو ابرهيم اسماعيل بن يحيى بن اسماعيل بن عمرو بن اسحق المزني ، صاحب الامام الشافعي ؛ وهو من اهل مصر ، كان زاهداً عالماً مجتهداً محجاجاً غواصاً على المعاني الدقيقة ، وهو امام الشافعيين واعرفهم بطرقه وفتاويه . صنف كتباً كثيرة في مذهب الامام الشافعي منها الجامع الكبير ، والجامع الصغير ، ومختصر المختصر ، والمنثور والمسائل المعتبرة ، والترغيب في العلم ، وكتاب الوثائق ، وغير ذلك . وقال الشافعي في حقه : « المزني ناصر مذهبي » . ولم يكن احد من اصحاب الشافعي يحدث نفسه في شيء من الاشياء بالتقدم عليه . توفي سنة ٢٦٤ (٨٧٧م ) في مصر .

٢) اي المختصر المعروف بالطحاوي ، شرحه جماعة من كبار العلماء . ومن شروحه

ابرهيم ، يعني المزني ، لو كان حياً لكفّر عن يمينه.» وذكر ابو يعلى الخليلي في كتاب الارشاد في ترجمة المزني ان الطحاوي المشار اليه كان ابن اخت المزني ، وان محمد بن احمد الشروطي[1] قال : « قلت للطحاوي : لِمَ خالفت خالك واخترت مذهب ابي حنيفة ، فقال : لاني رأيت خالي يديم النظر في كتب ابي حنيفة ، فلذلك انتقلت اليه.» وصنّف كتباً مفيدة منها احكام القرآن واختلاف العلماء ، ومعاني الآثار والشروط . وكان قد استكتبه ابو عبيد الله محمد بن عبدة القاضي ، وكان صعلوكاً ، فاغناه ، وكان ابو عبدالله سمحاً جواداً . ثم عدّله ابو عبيد علي بن الحسين بن حرب القاضي عقيب القضية التي جرت لمنصور الفقيه مع ابي عبيد ، وذلك سنة ٣٠٦ (٩١٨م) ، وكان الشهود يتعسفون عليه بالعدالة لئلا يجتمع له رئاسة العلم وقبول الشهادة ، وكان جماعة من الشهود قد جاوروا بمكة في هذه السنة ، فاغتنم ابو عبيد غيبتهم وعدّل ابا جعفر المذكور بشهادة المأمون وابي بكر بن سقلاب . وكانت ولادته سنة ٢٣٨ (٨٥٢) وتوفي سنة ٣٢١ (٩٣٣).

والكتاب الذي نشره الفاضل الاستاذ المدقق يوسف شخت هو من اجل كتب الشروط ، اتى فيه ابو جعفر على جميع ابواب الفقه من المعاملات كالبيع والرهن والاجارة والشركة والمضاربة وغيرها التي تذكر في كتب الفقهاء باسم «كتاب» فيقال : كتاب البيوع ، وكتاب الاجارة الخ ؛ ولا يتهيأ للكاتب ان يكتب صكاً من الصكوك على وجهه الشرعي سالماً من الخلل ، آمناً من النقض الّا ان يكون احاط علماً بجميع ابواب الفقه وتضلع في اصوله وفروعه ، وتردّد الى العلماء وعارضهم وعارضوه واحاط علمه بما اختلف فيه الفقهاء وما اتفقوا عليه واطلع على مذاهبهم ومذاهب اهل الشروط منهم خاصةً ، الى غير ذلك مما يطول شرحه.

---

المعتبرة شرح القاضي الاسبيجابي ، شيخ صاحب الهداية.

١) الشروط علم مستقل من الفقه ، يتعلق بكيفية كتابة الصكوك وتطبيقها على الاحكام الشرعية لتكون سالمة من الخلل ، ويلقب صاحبه بالشروطي . وكان ابو جعفر من كبار الشروطيين ، وقد الّف فيه كثير من الائمة كالامام ابي حنيفة وصاحبيه : الامام ابي يوسف ، والامام محمد ؛ والخصاف ، والسرخسي ، وغيرهم من قدماء اكابر الفقهاء ومن المتأخرين.

وقد كان هذا الكتاب الجليل متروكاً في زوايا النسيان لا يُعرف صاحبه عند الناس الا بطريق الشهرة بالتسامع ، ولا هذا الذي كتبه المؤلف في الشروط الّا ما يرد بطريق النقل عنه في بعض المسائل . واما بعد ان نشره الاستاذ شخت فصار يعرف قدر المؤلف وما كان عليه من الفضل وغزارة العلم وسعة الاطلاع والقدرة على البيان ، ويعرف ايضاً لغة اهل القرن الرابع الهجري من الفقهاء في الكتابة ، ويحفظ لنا صورة تدقيقهم وحرصهم على ان يكون ما يكتبونه سديداً وافياً بالغرض جامعاً مانعاً[1] .

١) قد جعل العلامة المحقق ابن كمال باشا الفقهاء سبع طبقات : الاولى : طبقة المجتهدين في الشرع كالائمة الاربعة وهم : ابو حنيفة ، والشافعي ، ومالك ، واحمد بن حنبل ، ومن سلك مسلكهم في تأسيس قواعد الاصول . الثانية : طبقة المجتهدين في المذهب كابي يوسف ، ومحمد ، وسائر اصحاب ابي حنيفة القادرين على استخراج الاحكام من الادلة على مقتضى القواعد التي قررها استاذهم ابو حنيفة في الاحكام ، وان خالفوه في بعض احكام الفروع . الثالثة : طبقة المجتهدين في المسائل التي لا نصّ فيها عن صاحب المذهب كالخصاف ، وابي جعفر الطحاوي ( الذي نحن في صدده ) ، وابي الحسن الكرخي ، وشمس الائمة الحلواني ، وشمس الائمة السرخسي ، وفخر الاسلام البزدوي ، وفخر الدين قاضي خان . فانهم لا يقدرون على شيء من المخالفة لا في الاصول ولا في الفروع ، لكنهم يستنبطون الاحكام في المسائل التي لا نصّ فيها على حسب القواعد ، الى ان قال : . . . الخامسة : طبقة اصحاب الترجيح من المقلدين كابي الحسن القدوري ، وصاحب الهداية ، وامثالهما . والسادسة : طبقة المقلدين القادرين على التمييز بين القوي والاقوى والضعيف وصاحب المذهب والرواية كاصحاب المتون المعتبرة من المتأخرين كصاحب الكنز ، وصاحب الوقاية ، وصاحب المجمع اه . قال العلامة الشيخ محمود الحمزاوي ، مفتي الشام ، في كتابه الطريقة الواضحة :

ان المتون عندنا اربعة صِغارُ :
وقاية ، ومجمع ، والكنز ، والمختارُ .

ونقل عن الواقعات ان القدوري فوق المتون ، لانه « الكتاب » عند المتأخرين ، وان السلف من ابي حنيفة الى محمد بن الحسن ، والخلف من محمد بن الحسن الى شمس الائمة الحلواني ، والمتأخرين من شمس الائمة الحلواني الى حافظ الدين البخاري اه .

فمما تقدم يتبين لنا ان ابا جعفر الطحاوي في الطبقة الثالثة بين الفقهاء . وان القدوري الذي كتابه فوق المتون هو بالنسبة للطحاوي وفي الطبقة السادسة ، ويعلم من هذا درجة الطحاوي في العلم .

وقد تصفحت هذا الكتاب الذي نحن في صدده فوجدت ان ناشره الاستاذ شخت قد صرف العناية في تصحيحه ، وانــه واسع الاطلاع لا يكاد يخفى عليه شيء من قانون الكتابة العربية واصولها واصطلاحات الكتاب ومناحيهم ، وقد ضبط بالشكل الكلمات التي قد يسبق لفهم القارئ ان يقرأها على غير مــا هي عليه في اصلها.

وزاد في اعتباري لهذا المصحح الفاضل انه يكتب لفظة ابن مثلاً مثبتاً لها همزة الوصل مع انها واقعة بين علمين ، وهو في ظاهره مخالف لمــا رسمه الكتاب ، ولكن لهذه المخالفة وجه صحيح وهو ان لفظة ابن اذا كانت واقعة في اول السطر او في آخره تكتب باثبات الهمزة ، وهذا مما استثناه الكتاب من حذف همزة ابن ، وهذا لا يتنبه لــه الا المحنك . الى غير ذلك مما يحتاج في معرفته لممارسات طويلة ونظر عميق . وهذا يبين لنا مقدار تدقيق الاجانب في الكتابة بلغتنا العربية وحرصهم عليها ويحرك فينــا الغيرة ان نحرص مثل حرصهم على لغتنــا الشريفة الجامعة على قدمهــا بين الطلاوة والبلاغة الساحرة والاختصار العجيب في تأدية المعنى الكثير بالفاظ قليلة مما يكاد يتعذر وجود نظيره في غيرها.

ولا بد لنا بهذه المناسبة من بيان ما عثرنا عليه من الملاحظات في طبع هذا الكتاب ، فمنها ان الحروف دقيقة لا يقدر العموم على قراءتها بسهولة ، ومنها ما يتعلق في كتابة بعض الكلمات . فقد ورد :

| صفحة | سطر | غلط | صواب |
|---|---|---|---|
| ٤ | ١٠ | في حقوقه ومسائله | في حقوقه ومسايله (ج. مسيل بلا همز) |
| ٥ | ١٦ | جميًا | جميًا |
| ٦ | ١٤ | ومسائله | ومسايله |
| ٧ | ١٤ | شائنه | شائنة |
| ٨ | ٥ | مسائله | مسايله |
| ٨ | ٢١ | نبين | فتبين |
| ٩ | ١٨ | عنده | عند |

| صفحة | سطر | غلط | صواب |
|---|---|---|---|
| ٢١ | ٨ | شائمه | شائمة |
| ١٦ | ١٠ | رأيا | رأي |
| ١٦ | ١٠ | عنده | عند |
| ٢١<br>٤٥ | ٧<br>١٠ | وتلخية | تُراجع في الاصل . فاننا لم نجد هذه اللفظة في كتب اللغة بهذا المعنى، ولا وجدناها واردة في استعمال الفقهاء . وقد يمكن ان يُتَمحَّل لها معنى يوافق ما وردت فيه، ولكنه بعيد . قال في القاموس : لَخَّ في كلامه : جاء به مُلتبَساً مستعجماً . فكأنَّ المراد تلبيس او استعجام ، او ابهام ، أو ان يكون الأصل تلجئة بالجيم ، وهو الاقرب . |
| ٢٧ | ٢٤ | يحمل | يعجل |
| ٣٥ | ٩ | لأنهم | لم نرَ أنَّ لها علاقة بما قبلها ولا بما بعدها ، فلتراجع في الاصل . |
| ٤١ | ١٢ | واكتابهما كتاب المهدة التي كان اكتتباه بينهما | واكتابهما كتاب المهدة الذي كانا اكتتباه بينهما . |

هذا واننا نكرّر الثناء على الناشر في تصحيحه للكتاب فانهُ لم يدخر وسعاً في التدقيق ، ومثل هذه الاغلاط لا يسلم منها في الغالب الذين يرتبون الحروف عند الطبع ، وهي لا تخفى على علم الاستاذ ، وقد ذكرناها لاجل استدراكها اذا اعيد طبع الكتاب .

# نظرة في حاضر الاسلام

بقلم الاب لامنس اليسوعي

## ١

مرت عدة سنوات على قرار اصدرته الحكومة التركيـة ، فقضت فيه ، بجرّة قلم ، على مؤسسة عاشت قروناً طويلة ، الا وهي الخلافة الاسلامية . على ان هذا القضاء السريع لم يحدث شيئاً من العقبات التي كان يتوقعها الناس في داخل الاسلام وخارجه . وذلك ان هؤلاء كانوا على وهم من تأثير الخلافـة في العـالم الاسلامي ، اذ كانوا يشبهونها ، من بعض وجوهها ، بالبابوية في العالم المسيحي ، فتصبح ، والحالـة هذه ، عظيمة الخطر ، تكاد تكون ضرورية لحياة الشعب الدينية . الّا ان الواقع على عكس هـذا الوهم فان الاسلام عاش مدّات متفاوتة ، في حياتـه الطويلة ، دون خليفة ، كما انه عاش ايضاً مع وجود عدّة خلفاء يُظهر كل منهم العداوة للآخر . وهكذا ، بعد ان مضى ست سنوات على القرار الكمالي القاضي على الخلافة في اذار سنة ١٩٢٤ ، نرى الاسلام يعيش ، وهو لا يكاد يشعر باضمحلال تلك المؤسسة العليا .

ولكن هذا لم يمنع من يهتم الأمر ، ان يبحثوا في تأليف هيئة ينزلونهـا منزلة الخلافة ، فافتكروا بالمؤتمر الاسلامي الدولي الشامل ؛ وجرّبوا ذلـك ، فعُقد مؤتمران في صيف سنة ١٩٢٦ ، الواحد في القاهرة ، والآخر في مكة . فلم يصلا الى نتيجة . الّا ان مؤتمر مكة ، بعد ان تحقق استحالـة تعين خليفة جديد ، دون ادعاءاته ومطاليبه للمستقبل ، ووضع الأساس لما يراه لازماً من تأليف اتحاد عامّ بين الشعوب الاسلامية . وعليه فلم يبقَ من هذين

المؤتمرين ، اللذين كثيراً ما تناقش فيهما الاعضاء ، سوى صدى المناظرات والمقترحات التي سرعان ما نسيها الجميع . وقد القى السيد بركات‌الله ، احد مسلمي الهنود المتصلين بشيوعيي الروس ، فكرة جديدة ترمي الى ايجاد لجنة دائمة تحلّ محل الخلافة . وهذه اللجنة تؤلف من اربعة اعضاء ، يهتم اولهم بالسهر على العقائد الدينية ، والثاني بجمع الزكاة ، والثالث بامور التربية ، والرابع باساوب الدفاع عن الدين ونشر الدعاية للاسلام . وبيّن ان صاحب هذا الاقتراح استمدّ مشروعه من المؤسسات البرلمانية ، ومن نظام الادارة في الكنائس المسيحية . كما انه يظهر من ذلك ان الاسلام يشعر بحاجته الى سلطة تديره ؛ وقد كانت الخلافة توهمه وجود هذه السلطة ، نقول: توهمه ، والبرهان انه لم يكن للخليفة ادنى صلاحية في ما خصّ العقائد ، حتى انه لم يكن له حق اصدار الفتوى المُعطى لأبسط «العلماء».

وهنا يجدر بنا السؤال عن هذه المشاريع وهل يُعاد النظر فيها ، وهل يحقق شيء منها يوماً ما ؟ من الصعب ان نجيب جواباً مقنعاً . لأن الصعوبات جمّة تنشأ عن اسباب عديدة منها تعدّد الشيع التي تتقاسم الاسلام ، ويقظة الروح القومية وتباين مصالح الشعوب الاسلامية المختلفة.

ولو سلّمنا بان السنيّين يتفقون جميعهم على اقرار هيئة جديدة ، لكان هذا الامر سبباً كافياً لحمل سائر الشيع على الابتعاد عنه . على ان هذا التسليم صعب التحقيق لان بين السنّيين انفسهم كثيراً من المحافظين التقليديين الذين لا يفيقون بسهولة من الحلم باعادة الخلافة القديمة . ومن ايّ الشعوب يكون الخليفة الجديد ؟ ايكون تركياً وقد جرى ما جرى في الخلافة العثمانية ؟ ام يكون عربياً ، والاتراك لا يقبلونه كما انهم لا يقبلون شيئاً يأتيهم عن طريق العرب ؟ وهذا نتيجة من نتائج اليقظة القومية التي اخذت توسّع الخروق وتعلي الحواجز بين المسلمين من الامم المختلفة ، حتى ان تلك الحركة القومية القديمة ، التي ظهرت في القرون الاولى للاسلام وعُرفت بالحركة الشعوبية ، لا تظهر اقوى مما نراه اليوم من النزعات القومية ، فضلًا عن انها لم تبقَ كما كانت عليه في صدر الاسلام من طلب المساواة بالعرب فحسب ، بل تجاوزته الى ابعد من

ذلك ، لان النفوذ العربي هبط هبوطاً عظيماً في العالم الاسلامي الحاضر. وكان السابق في هذه الطريق الشعوبية الشعب التركي ، فترك كل شيء حتى الديانة. ولم يكتفِ بان نسخ الابجدية العربية مستبدلاً بها اللاتينية ، حتى ادخل لغته الخاصة في الصلاة الجامعة ، وفي خطبة الجمعة ، واخذ ينفي من قاموسه كل المفردات العربية والفارسية الاصل . وقد سار الفرس على طريق الاتراك في هذه النهضة الوطنية التي تظهر عزيزة على قلب الشاه الحالي . ويجب ، في ذكر هذه الظواهر الشعوبية ، الّا ننسى المصريين الذين لا يدعون فرصة الّا ويباهون بمجد الفراعنة . وما الفراعنة في القرآن ، الّا مثال الكفر والظلم.[1] فاضحت الشعوب الاسلامية تجوز التاريخ الى ما قبل الاسلام لتتصل باجدادها حتى قبل الهجرة ، اذ لم يبقَ «للجاهلية» تلك الصفة الشائنة التي اقام منها العرب في صدر الاسلام فزّاعة تمنع المسلمين الجدد من الاتصال باجدادهم الاقدمين . من الحقّ ان هذه الحركة لا تزال في اولها ، الّا اننا لا ندري هل تتوقف بعد وقد سارت على هذا السبيل الذي اختطته تركية امام الجميع فاصبحوا على وشك السير عليه . اما مصر فان كل ماتيها منذ الحرب الكونية تدلّ على انها تتبع سياسة شعوبية ضيقة ، قليلة الاكتراث ، او عديمته ، لخير الاسلام العام.

ومن مظاهر هذه الحركة ان الشعوب الاسلامية بدأت ، منذ الحرب ، تحصي رجالها ، وتباهي بعددها، مطالبة بتحقيق مصالحها القومية قبل كل شيء. ومن المفيد ، في هذا الباب ، ان نطّلع على العدد الحقيقي لاهمّ الشعوب الاسلامية . فنتحقق اننا ، على مجموع ٢٤٠ او ٢٥٠ مليون مسلم (حسب احصاء سنة ١٩٢٩) ، لا نجد اكثر من ١٢ مليوناً من العرب الخاص . فاذا اضفنا اليهم الستة والعشرين مليوناً من الاسلام الذين يتكلمون العربية ، ويعدّهم اكثر الناس خطأً من العرب ، كان لنا ٣٨ مليوناً من المنعوتين بالعرب على غير حق ؛ ومهما يكن فهو عدد ضئيل بالنسبة الى سائر المسلمين . اما الاكثرية فيؤلفها الهنود وعددهم ٧٠ الى ٧٣ مليوناً ؛ ثم يأتي الخمسون مليوناً من الماليزيين ، وهم سكان المستعمرات الهولندية في اوقيانية كجزيرة جاوى

[1] اطلب القرآن : سورة ٣٨ : ١١ ؛ و ٤٠ : ٣٨ ؛ و ٨٩ : ٦ وما بعدها

وسومطرة وغيرهما . وقد يبلغ الاتراك ٣٤ مليوناً منهم ١١ مليوناً فقط في تركية . وظاهرٌ ان اعظم هذه الكتل الكتلة الهندية ليس فقط بعددها، بل بمدّاتها المالية ايضاً ، وبسيرها على طريقة منظمة اقتبستها من المؤتمرات السنوية التي تعقدها . وهذه الطريقة المنظمة تفتقر اليها كل الافتقار الكتلة العربية كما انها تفتقر الى توحيد آرائها في سبيل الاخذ ببرنامج مشترك . اما هذه الوحدة الفكرية فلا يمكن الاتكال في تحقيقها على مصر المنصرفة كل الانصراف الى تعزيز استقلالها السياسي . وما كانت « مملكة نجد والحجاز وملحقاتهما » لتقوى على السير في مقدمة هذه الحركة ، وان كره بعض المغرورين بابن سعود . فان مملكته فقيرة ، ولم تنل ، حتى اليوم ، ثقة العرب انفسهم ، اذ انها لا تزال تقاوم العقبات الداخلية ، من ثورات القبائل الى معارضات العلماء الذين يعتبرون ابن سعود متطرفاً في تقدمه نحو المدنية ؛ فضلاً عن الفظائع التي ارتكبها الوهابيون مدفوعين بتعصبهم الذميم مما ترك اسوأ اثر في نفوس المسلمين اجمعين .

يؤلف السنيون الاكثرية الساحقة في الاسلام اذ يبلغ عددهم نحو ٢٢٠ مليوناً اي ٩١ ٪ من مجموع العالم الاسلامي . وقد يوهم هذا العدد العظيم بقوة حقيقية ، ووحدة متينة ثابتة ، مَن لا ينتبه الى انه ينطوي على عشرات الملايين من الاتراك العلمانيين العاملين في طول الاناضول وعرضه ، ومن المسلمين الشيوعيين المقيمين في الجمهوريات السوفيتية الروسية ، ومن « العصريين » المنتشرين في مصر والهند وغيرهما . ومن هؤلاء جميعاً كتل قوية يؤلفها ادباء متعلمون يعملون عملاً هدّاماً يضعف قوى الاسلام القديم ويفرّق اجزاءه . فيكوّنون ما ندعوه «بحزب اليسار المتطرّف» في المجموع الاسلامي . وتجاهه نرى حزباً متطرّفاً من جهة اليمين يؤلفه الوهابيون ، وهم حنبليون على غاية ما يكون من التعصب ، يعتقدون ويدّعون بانهم وحدهم المسلمون الحقيقيون . وقد تدفع بهم الجرأة الى ان يُحِلّوا انفسهم ، على قلة عددهم ، محلّ تابعي المذاهب الثلاثة جملةً : اي الحنفيين ( ١١٨ مليوناً ) والشافعيين ( ٧٣ مليوناً ) والمالكيّين ( ٣٠ مليوناً ) . اما عدد الحنبليين ، فلا يبلغ الثلاثة ملايين . . .

وفي الجانب الايمن من الاسلام ايضاً ، ولكن على بعد من الوهابيين

وتطرّفهم ، زي فئة المحافظين القدماء . وخلاص الاسلام ، في نظرهم ، يكون بالرجوع جُملةً الى الاسلام التقليدي دون انتباه للتقدّم العصري ، ولا اهتمام بالمدنية الحاضرة والاستفادة منها . وان من هؤلاء من يتأسف على السلطنة المطلقة في امور الدين والدنيا كما كانت في تركية القديمة ؛ ومنهم من يرجو الرجوع الى عهد خلافة تقليدية تذكر الشعب بعهد الخلفاء الراشدين ، ذاك العهد الذي لا يزال البعض يتوهمون انه كان عصر الاسلام الذهبي . واقلّهم مطاليب يرضون بخلافة دستورية ، على شكل الخلافة التركيّة بعد ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ ، بل يرضون بخلافة اسمية خالية من كل سلطة سياسية ، كما كانت الخلافة العثمانية من سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٢٤ . وفي اليمين ايضاً ، بل في الوسط الايمن من الاحزاب الاسلامية ، يجب ان نفرد مكاناً خاصاً « للسَلَفيّة » الذين يدّعون المحافظة والاصلاح معاً . وانه من الصعب ان نعيّن في اية حدود يمكنهم تطبيق هذين القسمين ، اللذين يتنافيان كما يتنافى الجمود والحركة . اما لسان حال هذا الحزب « المحافظ المصلح » فهو المجلة الشهرية « المنار » التي وقفت نفسها ايضاً على خدمة ابن سعود ، ونشر الدعوة لسياسته.

ورب قائل يقول : أولا يمكن التوفيق بين هذه الاحزاب المختلفة ؟ فنجيب ان كل تجربة في هذا السبيل يعترضها ، فضلاً عن التباين في الافكار الدينية ، نموّ النزعات القومية الرامية من جهة الى توسيع النفوذ التركي ، ومن الجهة الاخرى الى توسيع النفوذ العربي . هذا اذا لم نتكلم عن معارضة الشيعيين الذين يبلغون نحو ٢٢ مليوناً . وافضل جواب نجيب به من يسأل عن امكان الاتفاق بين السنة والشيعة هو ان نطلعه على المناظرات الشديدة اللهجة الدائرة منذ سنين بين مجلة « المنار » ومجلة « العرفان » . فيرى ان الفريقين ابعد من ان يذكرا قرابتهما الدينية . . . وقد تألف في القاهرة حزب جديد غايته العمل على التقريب بين قلوب المسلمين ، وهو حزب « الرابطة الشرقية » ، ولكنه لم ينجح ؛ لان المتطرّفين يتهمونه بالرجعية ، والمحافظين بالتطرّف والخروج . فكان من نصيب « الرابطة » انها اختبرت صحة القول : ان المتساهلين المصلحين يُرمون بالخطأ في غالب الاحيان.

( للبحث صلة )

## صفحة من تاريخ

# الرهبانية الباسيلية الشويرية

بقلم الاب اثناسيوس حاج ق. ب.

مدير الدروس في المدرسة الاكليريكية

ان لهذه الرهبانية الكريمة ، كما لسائر الرهبانيات القديمة ، تاريخاً جمع بين الاعمال المجيدة التي اتتها ، والاضطهادات المؤلمة العديدة التي انتابتها ، فكان كحقل نبتت فيه الزهور الجميلة ، على ما رمت فيه الايدي المفسدة من الاشواك الوبيلة . ولها ايام مجد وصفاء ، كما ان لها ايام بؤس وعناء.

### ١ تأسيس الرهبانية

هناك على مرتفع صخري مطل على البحر ، جنوب مدينة طرابلس الشرقي ، امام غابة من السنديان ، يقوم دير البلمند. وهو دير قديم ابتناه سنة ١١٥٧ رهبان القديس برنردس السترسيون ، كما بيّنه بالادلة الدامغة المؤرخ المدقق الاب لامنس اليسوعي ، والعالم الافرنسي انلار. وان كان احد لم يزل في شك من هذا القبيل ، فليستنطق اسم الدير ، بل حجارته وهندسته ، تجبه عن اصله باجلى بيان.

على انه مهما كان من امر تأسيسه وتطوره على تعاقب الاجيال ، وانتقاله من اللاتين الى اليعاقبة ، ثم الى الروم الملكيين ، فان ما يهم البحث عنه باختصار في مقدمة هذه العجالة هو حالة دير البلمند في اواخر القرن السابع عشر وبدء الثامن عشر . فلقد حدث آنئذ بين جدرانه امر ذو بال.

ان رهبان البلمند كانوا حوالي سنة ١٦٩٤ ارثوذكسيين . وقد يدل على ذلك بعض الدلالة صورة كبيرة في كنيسة الدير تمثل الدينونة والجحيم والنعيم بيد انها لا تمثل المطهر ، وقد كتب في اسفلها هذه العبارة :

« في رئاسة الاب المكرم الخوري فرح صورها . . . . سنة ١٦٩٤ »

ان تقل عن هذا الدير انه كان ارثوذكسياً فاننا لا ننفي وجود بعض رهبان كاثوليكيين . لان الانفصال التام ما بين الطائفتين لم يكن قد تمّ بعد وكان الفريقان مشتركين لا يكادان يريان اختلافاً ما في ان يكون الواحد خاضعاً لرومة ، والآخر غير خاضع . ناهيك ان المرسلين اليسوعيين ، الذين كانوا في طرابلس ، لم يتوانوا في ايصال تعاليمهم الى قلب الدير المذكور . فقد ورد في ما يسمونه ( *Lettres édifiantes I. I. p 129-130* ) ان تلميذين من تلامذتهم دخلا دير البلمند لاعتناق الحياة الرهبانية . فمن ثم تسنّى للاب فرسو ان يتردد على الدير ويخاطب رهبانه ، رأساً وبواسطة تلميذيه ، عن الاتحاد برومة الى ان فاز بالمرغوب . يؤيد هذا الاتحاد الرسالة القديمة التي نشرها في مشرق سنة ١٩٣٠ صفحة ٢١٥ ، المؤرخ البحّاثة الاب قسطنطين الباشا ، وقد وجهها بعض رهبان البلمند الى الحبر الاعظم سنة ١٧٠٤.

فهذا الدير الذي غدا كاثوليكي المعتقد ، بقي كذلك حتى بعد سنة ١٧٢٥ . يشهد على ذلك اولاً ما ورد في سجل الرهبانية الشويرية القديم ، صفحة ٩ ، من ان المطران جراسيموس ، اسقف حلب ، هرب سنة ١٧٢٢ من وجه الروم فالتجأ بدير البلمند . وثانياً ما جاء في مجموعة ربّاط التي اشار اليها الاب تونل اليسوعي في مقالته الممتعة على دير البلمند ، اي ان قنصل حلب الافرنسي كتب الى وزير فرنسة ما معناه : ان البطريرك سلفسترس وصل من القسطنطينية الى حلب في ٩ ت ٢ سنة ١٧٢٥ ورشق بالحرومات اربعة كهنة كاثوليكيين وكل دير البلمند[1].

على انه لم يلبث طويلاً حتى انفصل رهبان الدير المذكور عن رومة ، ولعل ذلك الانفصال قد ابتدأ سنة ١٧٣٣ اذ حضر سلفسترس الى طرابلس واخذ . . [2]

هذه اللمحة كافية لان ترينا السرّ في نزوح بعض رهبان البلمند وتأسيسهم الرهبانية الشويرية . فمن ثمّ اذ لمع سراج النقمة على رأس الابوين البارين وهما الخوري جراسيموس والخوري سليمان الراهبان الحلبيان من رهبان دير سيدة

١) انظر ايضاً سجل الرهبانية صفحة ١٧

٢) انظر سجل الرهبانية ، ص ٥٦

البلمند ... فتعاقدا اليمين مع سبعة انفار من اخوتهم ... بان يبارحوا الدير ويذهبوا الى مكان يرفعون فيه اعلام قانون الرهبانية المقدس الذي خمد لهيبه في هذه البلاد ... وكان ذلك سنة ١٦٩٧ »[١].

اجل ان دير البلمند هذا بعد ان كان جنة من جنان الكنيسة الزاهرة بالفضائل الرهبانية ، آلت احواله الى الفتور والانفصال ، الى ان هبت روح الحياة الكاثوليكية في صدور البعض من ابنائه فتركوا رفاقهم وطلبوا مكاناً آخر يعيشون فيه بحياة رهبانية وكاثوليكية معاً.

ولما كانت غايتهم تاسيس دير خاص بهم ، وسن قانون جديد ، رأوا ان يستطلعوا رأي البطريرك كيرلس الخامس الانطاكي الكاثوليكي ، ويستأذنوه بذلك ؛ فارسلوا له اثنين منهم ، هما الابوان جراسيموس وسليمان الراهبان الحلبيان ، وبعثوا اليه معهما بقانون مؤلف من ١٥ باباً ليثبته لهم فيسيروا عليه ، وكان ذلك سنة ١٦٩٧ . فلما وقف البطريرك على قصدهم المقدس توسم فيه خيراً كبيراً ، فباركهم وشجعهم وثبت قانونهم . فذهبوا من ثمَّ يفتشون عن مكان تصلح فيه الحياة الرهبانية . وبعد البحث الطويل لم يروا افضل من ضواحي الشوير ، فحلّوا ضيوفاً كراماً على كاهن مقيم بين الشوير وبتغرين ، في غرفة محاذية لكنيسة قديمة على اسم القديس يوحنا الصابغ . فعاشوا هناك بالبرّ والقداسة ، ونالوا حظوة كبيرة في عيني الامير نجم ، وهو من الامراء اللمعيّين الذين كانوا يلون على المتن تحت اشراف الامير الاكبر حاكم لبنان حيدر الشهابي . فهذا الامير باعهم مزرعة « بيت عيال » ووعدهم ان يحمي ذمارهم.

اما هم فلما استتب بهم المكان اقاموا عليهم رئيساً ، وعاشوا بالعفة والفقر والطاعة ، الحصون الثلاثة للحياة الرهبانية . ومنذئذ اخذ يتوارد عليهم طلّاب الكمال من كل صوب.

وفي سنة ١٧٢٠ كان عدد الرهبان قد بلغ الثلاثين ، فعقدوا مجمعاً عاماً ، هو الاول ، فاقيم فيه رئيس عام ومدبرون اربعة . وفي السنة التالية اثبت مجمع المدبرين النذور الثلاثة ، وابرزوها جميعهم باحتفال مهيب.

١) كذا في سجل الرهبانية ، في الفاتحة.

## ٢ نمو الرهبانية

ولم تكن سنة ١٧٢٢ حتى ذاع خبر إنشاء الرهبانية في كل ناحية ، واخذ بعض آبائها يقومون بالرسالات المقدسة في جهات مختلفة كحمص وحماه وبعلبك. فكان جميع الناس من اكليروس وعلمانيين يطمحون بابصارهم وبقلوبهم الى الرهبانية الجديدة التي غدت كسراج يضيء في ظلام الليل ، فكنت تراها على حداثة عهدها تنمو بسرعة عجيبة لان اصبع الله كانت فيها . واذا باهل رأس بعلبك يلتمسون من الرهبانية ان تستولي على دير سيدة الراس ، وبدير مار اشعيا يطلب الانضام اليها . فسبحان من يجعل من الحبة الصغيرة شجرة كبيرة باسقة الاغصان.

## ٣ الاضطهادات والنكبات

بينا الرهبانية تنمو كالوردة في ريعانها ، اذا بسيف الاضطهاد وقد استله الشيطان ليقتطعها من بستان الكنيسة.

ففي سنة ١٧٢٤ مات البطريرك اثناسيوس دبّاس الانطاكي ، فاجتمع الاساقفة واقاموا خلفاً له كيرلس طاناس السادس . اما الروم في الاستانة فقد ساموا سلفسترس بطريركاً ليكون خليفة لاثناسيوس . فاخذ سلفسترس من ثم يسعى بكل قوته في حطّ كيرلس عن كرسيه ، ونفي الاساقفة الكاثوليكيين اعوانه ، وطرح الكهنة المنتمين اليه في السجون.

فهؤلاء لم يروا ملاذاً لهم آمن من اديار الرهبان في لبنان ، فعاذوا بها . ومن ثمّ تحوّل سخط البطريرك ووكيله على الرهبانية ، وبنوع خاص على رهبان دير سيدة الراس ، ونال من محافظ الشام الامر بالقبض على بعض كهنة الدير الذين كان حانقاً عليهم . فلما شعر رهبان الدير بوصول الجنود ، فرّ المغضب عليهم الى المغاور والجبال ، وكان رفاقهم يقدمون لهم الطعام خلسة تحت جنح الظلام . ولم يلبث هؤلاء ايضاً ان تركوا الدير واعتصموا بالجبال[1].

١) سجلّ الرهبانية ص ١٤

وكان اذ ذاك وقت الشتاء ، فقاسوا عذاباً شديداً من الجوع والبرد القارس ، وبقوا اياماً تائهين بين الثلوج ؛ ولم يعودوا الا يوم السبت العظيم ، فاختبأوا في قرية الراس الى ان انتصف الليل ، فذهبوا جميعاً الى الدير حيث تلوا الفرض الالهي ، وقدموا الذبيحة ، ووزعوا الاسرار على الشعب . وبعد ذلك تفرقوا واختبأوا الى ان تيسر لهم الفرار ، فاتوا الى دير مار يوحنا الصابغ ، بعد ان قاسوا على الطريق من اهوال الامطار والثلوج وآلام التعب والجوع ما يشيب الاطفال . وكانوا في كل ذلك يسبحون الله شأن الاتام القديسين.

اما الشيطان فلم يكتفِ بهذا القدر من الاضطهاد ، بل اراد ان يتتبع الرهبانية في كل اين وآن ليبيدها بالكلية ؛ ومن ثمّ نراه قد نقل مسرح اضطهاداته الى دير مار يوحنا الصابغ.

ان بعضاً من اعداء رهبان مار يوحنا اغروا الامير نجماً بثلاثمائة غرش لكي يخرجَ الرهبان من الدير ويجعله في ايديهم .فدفع الغرور هذا الامير الى استدعاء الرئيس العام وتهديده باخراجه من الدير عنوة ، ان لم يدفع القيمة . فوعده بدفع مائتين وخمسين غرشاً . فلما علم الاعداء بذلك ، وعدوا الامير نجماً بدفع ضعف القيمة . فبلغ الرهبان خبر هذه المؤامرة ، فالتجأوا الى آل خازن طالبين وساطتهم . اما هؤلاء فهبّوا لنصرة الرهبان واطلعوا الامير الاكبر (حيدر الشهابي) على دخيلة الامر ، فارسل فلام الامير نجماً لوماً شديداً .

ومذ ذاك اخذ الامير نجم يزداد حقده الى ان اتيح له سنة ١٧٢٨ فهيّج بعض المشاغبين على الرهبان ، وهكذا اضطرهم ان يخرجوا من ديري مار يوحنا ومار الياس شويا فاخلوهما ولجأوا الى دير مار اشعيا . اما دير مار الياس شويا فقد بقي في ايدي الاعداء حتى ٢٣ ت ١ سنة ١٧٢٩ ، يوم انسلخ مع المحيدثة من سلطة الامير نجم ليدخل تحت حكم الامير عساف ، الذي استدعى حالاً الرئيس العام وسلمه الدير بما فيه . فعاد الرئيس العام ، الخوري نيقولاوس الصائغ ، برهبانه الى الدير حيث وجدوا الدّ خصومهم باقياً فيه . فلم يدعوه يمضي ، بل ابقوه عندهم على الرحب والسعة ، شأن المسيحي الحقيقي الذي يقابل الشر بالخير . واما دير مار يوحنا فقد ارجع الى الرهبانية سنة ١٧٣١ ، بعد ان

بقي فيه الاعداء ستين وتسعة اشهر . وهكذا خرجت الرهبانية من هذه المعركة وكثير غيرها ظافرة قوية.

## ٤ الرهبانية والاحبار الرومانيون

لا يخفى ما للاحبار الرومانيين من العطف الابوي الجزيل على الشرقيين والعناية بهم وبشؤونهم. فلقد قدروا الرهبانية حق قدرها فحوطوها ، منذ اول عهدها ، بعناية خاصة لتوسمهم فيها عموداً للكنيسة قوياً في بلاد سورية. ولا عجب فان الرهبانيات في الكنيسة بمثابة الجيوش المنظمة في الممالك ، تذود عنها ، وتمد سيطرتها الى جميع الاقطار.

ففي سنة ١٧٤٣ كتب الكردينال بيترا ، وكيل المجمع المقدس ، والمونسنيور السمعاني ، للرئيس العام كتباً يمتدحان فيها امتداحاً جزيلاً الرهبانية ، وحفظها الايمان والفروض المأمور بها في المناشير الرسولية . وعربوناً لرضى الكرسي الرسولي عنها ، قد وهبها البابا اكليمنضوس الثاني عشر سنة ١٧٣٩ دير سيدة السفينة في رومية . فعظم جلال الكرسي الرسولي للرهبانية يعرف من عظم هذه الهبة . فان كنيسة سيدة السفينة هي من الآثار التاريخية الجليلة جداً ، كانت على عهد يوليوس قيصر منزلاً للغرباء ، ثم تحولت في الجيل الثاني بعد المسيح الى ملجأ للمسيحيين وهبتهم اياه الملكة دومينيكة نسيبة الملك ، ليجدوا فيه معتصماً وقت الحاجة ، ولذا سمي وتنذ ملجأ الخلاص الى ان تحول الى كنيسة للسيدة على عهد قسطنطين الكبير ، فدعي كنيسة سيدة السفينة من باب التورية . اما التصاوير والنقوش والفسيفساء التي فيها فهي غاية في القدم والابداع.

ولقد اعرب الكرسي الرسولي فيما بعد عن جزيل اعتباره للرهبانية وعطفه عليها بشهادات جمة ، بينها ما ورد في مقدمة الفرائض التي كتبها السمعاني مبيناً فيها رضى رومة عنها:

« فمدت هذه الكرمة المباركة [ الرهبانية الشويرية ] قضبانها الى البحر والى الانهار فروعها ، اذ انتشرت ليس بديورتها فقط بل بفضائل ابنائها ايضاً . . . »

وما اجمل التشابيه التي شبّه بها الباپوات الرهبانية . فتارة يرون فيها وردة بين الاشواك ، وتارة يشبهون اولادهـا بنجوم منيرة في الظلام . قال البـابا بناديكتوس الرابع عشر في براءة ارسلها الى الرئيس العام والرهبان عموماً :

«بما ان الكردينال فرتوناطوس قد امتدح الفرائض واعتبرها مستحقة التثبيت ببراءة رسولية فنحن بالحنو والسلطان الحبريين لم نأنف تمام ذلك. وبما انكم ايها الاولاد الاحباء ، انتم وبقية الشعوب الارثوذكسيين الخاضعين لهـذا الكرسي المقدس ، قائمون في بلاد سورية كنجوم منيرة بين ظلمات غير المؤمنين والاراتقة ، فاجتهدوا دائماً في ان تتردّوا نوراً جديداً وتقدموا انواراً متقدة لاولئك الذين لا يشاهدون نور الحق.»

ومنها ما ورد في منشور التثبيت الذي ابرزه البابا بناديكتوس الرابع عشر في ١١ حزيران سنة ١٧٥٧ وفيه :

«...ان سالفنا السعيد الذكر اكليمنضوس الثاني عشر جزاء عن خضوعهم وانتمائهم وطاعتهم للكرسي الرسولي ونظراً للايمان الارثوذكسي الرومـاني الذي يتمسكون بـه ويحفظونه بغير انثلام ما بين الاراتقـة وغير المؤمنين والمشاقين المحيطين بهم ... قد منح رهبان الجمعية المذكورة كنيسة القديسة مريم ايندومنيكا الملقبة عموماً بكنيسة السفينة ... بموجب هذه البراءة نقبل ونثبت بالسلطان الرسولي الفرائض المذكورة ونضع عليها تمكين قوة الثبـات الرسولي غير المنحل.»

وهناك ايضاً المناشير التي ارسلها الحبر الاعظم الى جميع الاساقفة والبطاركة السوريين ، واوصاهم فيها بالرهبان توصية الاب الحنون ببنيه الاعزاء ، ومناشير الانعامات التي منحها للرهبانية من مثل الغفرانات الكاملة وغيرها.

«ولان محبتنا ترمي الى نمو عبادة المؤمنين ... فنمنح بالرب غفراناً كاملاً لكل المؤمنين الذين يزورون بعبادة كنائس رهبان وراهبات الروم الملكيين الباسيليين من مجمع مار يوحنا الصابغ وذلك في الاعياد الآتية الخ.»

كل هذا قليل من كثير الادلة على فضل الاحبار الرومانيين وسمو منزلة الرهبانية في اعينهم.

( للبحث صلة )

# شخصية الحطيئة الادبية

بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

للحُطَيئة شخصية ادبية من اعمق الشخصيات الجاهلية تأثيرًا في المتأدبين ، واشدّها اجتذاباً لعقول المطالعين ، على ما فيها من غرابة اطوار وشذوذ اخلاق ، وما اكتنفها من سوء تقدير واحتقار . فرأينا ان نجتهد في تحديدها وسرد ميزاتها ، مستندين من جهة الى ما نعرفه من صفات الحطيئة واخلاقه ، ومن جهة اخرى الى ما وصل الينا من شعره .

## صفاته واخلاقه

### سوء خَلقه وخُلقه — بخله

كان الحطيئة قصيرًا ، دميماً ، افقم ، اي بارز اللحي الاسفل ، قبيح المنظر ، يلبس خشن الثياب وخلقها ؛ فكان رثّ الهيئة ، « لا تأخذه العين » ، على قول صاحب الاغاني[1] . يجمع الى ذلك خبث الاصل ، وفساد النسب ، فعدم العصبية لقبيلة او لمذهب ، فدناءة الاخلاق ، والنفاق في الدين ، والعقوق ، وما الى ذلك مما ينتج عن سوء المنشأ كعادة التشرّد ، والاحتيال على الكسب دون تمييز بين الحلال والحرام ، احتيالًا ادّى بالحطيئة الى الحرص والجشع والبخل حتى انه كان ، على رغبته في ضيافة الغير ، لا يضيف احدًا ؛ بل ربما طرد من قصده اقبح طرد كما فعل بابن الحمامة ، وقد مرّ بـه ، وهو جالس

(1) الاغاني ٢ : ٥٢ .

بفناء بيته ، فقال: « السلام عليكم . » فقال الحطيئة : « قلتَ ما لا يُنكر . » قال : « اني خرجت من اهلي بغير زاد . » فقال: « ما ضمنت لأهلك قِراك . » قال: « افتأذن لي ان آتي ظلّ بيتك فاتفيأ به ؟ » قال : « دونك الجبل يفيء عليك . » قال : « انا ابن الحمامة . » قال : « انصرف ، وكن ابن ايّ طائر شئت ! »[1]

اما حين لم يكن يتوفق الى طرد ضيفه فكان يهجوه ، بعد ان يقريه ، هجاء مرًّا ينغّص عليه القرى ، كما فعل بابن اعي فقال فيه من ابيات :

لما رأيت ان ما يبتغي القرى ... وان ابن اعي ، لا محالة ، فاضحي ،
شددت حيازيم ابن اعي بشربة ... على ظمإ سدّت اصول الجوانح[2]

ولم يلبث ان عُرف ذلك منه ، فتجنب الناس ضيافته .

كفره بالنعمة

ومن نتائج لؤمه انه كان سؤولًا مُلحفًا ، كافرًا بالنعمة بعد ان ينالها ، كما صوّره ابدع تصوير صاحب رسالة الغفران ، اذ خلّصه الى النعيم ، لصدقه في هجاء نفسه ، ولكنه اقامه « ببيت في اقصى الجنة كأنه حفش امة راعية » ، واظهره رجلًا « ليس عليه نور سكّان الجنة ، وعنده شجرة قمئة ثمرها ليس بزاكٍ » . وجعله يجيب ، اذ يُسأل عن رضاه بهذا المقام الحقير ، فيقول ، وفيه اجلّ بيان لكفره بالنعم : « والله ، ما وصلتِ اليه الا بعد هياط ومياط ، وعرق من شقاء ، وشفاعة من قريش وددت انها لم تكن ! »[3]

رقة قلبه

على ان هذا الرجل اللئيم الطباع ، الخبيث اللسان ، المنافق في دينه ، الذي عقّ امه ، ولم يعرف اباه ، كان رقيق القلب احيانًا ، شفيقًا ، عطوفًا على امرأته واولاده كما تدلنا حادثته مع امرأته ، عندما همّ بالسفر فاتته ، وقد قدّمت له راحلته ليركب ، فقالت :

اذكر تحنُّننا اليك وشوقنا ، ... وارحم بناتك ، انهنّ صغار !

---

١) الاغاني ٢ : ٤٩ ٢) الروائع ٢٩ : ٢٤
٣) ابو العلاء المعرّي : رسالة الغفران – في الروائع ١٢ : ٣٤ .

فقال : « حطّوا ، لا رحلت لسفرٍ ابداً . »[1] ، وكما نستنتج من رقة تلك الأبيـات التي خاطب بها عمر من سجنه ، اذ تذكر اولاده ، فحنّ قلبه اليهم وصاح :

ماذا تقول لافراخٍ بذي مرخٍ زغب الحواصل ، لا ماء ولا شجر !

وكثيراً ما يشبههم بافراخ القطا ، ويذكر انه انما يستجدي الاكفّ ويقاسي مشاقّ السفر من اجلهم ، كما قال في مدحه للوليد بن عقبة :

واني لارجوه ، وان كان نائياً ، رجاء الربيع انبت البقلَ وابلُه ،
لزُغب كاولاد القطا ، راث خلفُها ، على عاجزات النهض حمر حواصلُه .[2]

واننا نحترم هذه العاطفة في اي شخص كان .

## شعره

### الديوان

جمعه — رواياته

اهتمّ لغويّو القرن الثامن والتاسع بشعر الحطيئـة اهتمامهم بغيره من الشعر الجاهلي والمخضرم . وكان قد دُسّ على الحطيئة شعر لا يُستهان به من قبـل الرواة ، ولاسيما حماد ، كما سنرى . فانشطر الجامعون الى شطرين من حيث قبول هذا الشعر . فكان ابو حاتم السجستاني يشدّد في ذلك ، ويرفض كل ما يشكّ بصحته . وكان ابو عمرو الشيباني وابن الاعرابي يقبلان دون صعوبة ما يريانه محتملاً ، ويشيران احياناً الى اماكن الشكّ .

شرحه — طبعاته

اما الرواية الاولى فلم يصل الينا منها الا القليل المتفرّق . واما الثانيـة فقد اخذها ابن حبيب عن الشيباني وابن الاعرابي ، ثم شرحهـا ابو الحسن السكري . وهي التي اشار اليها حاجي خلفـا ، ووصلت الينا باسم « ديوان

١) الاغاني ٢ : ٥١ — ومقدمة ديوانه لغولدسيهر ص ٢٨ .
٢) الديوان (طبعة مصر) ص ٢٩ — راث خلفها : ابطأ شبأجا ، لسوء غذائها وفقرها .

الحطيئة » . وقد طُبعت لاول مرة في القسطنطينية سنة ١٣٠٨هـ. (١٨٩٠) في جزئين بين يدينـا الاول منهما ، « وعليها ايضاحات مختصرة » مأخوذة من شرح السكري . ثم قام المستشرق اغناطيوس غولدسيهر ( I. Goldziher ) فنشر الديوان نشرةً علمية في ليبسيك سنة ١٨٩٣ مع شرح السكري ، مقدماً عليه بحثاً ضافياً بالالمانية ، مضيفاً اليه حواشي مفيدة ، ملحقاً به ما يُنسب الى الحطيئة من الشعر غير الموجود في الديوان . وفي سنة ١٣٢٣هـ. (١٩٠٥) ظهرت له طبعة مصرية عني بها احمد بن الامين الشنجيطي ، مع شرح السكري ايضاً ، الا انها خلو من فوائد الطبعة الالمانية.

صحة نسبته

مما لا شك فيـه ان الرواة تصرَّفوا في الكثير من شعر الحطيئة ، بـل اضافوا اليه ما ليس منه . وهناك حديث ذكره ابن سلّام وصاحب الاغـاني وغيرهما عن ابي عبيدة ، عن يونس ، مفاده ان حمّادًا قدم البصرة على بلال بن ابي بردة . فقال له : « ما اطرفتنا شيئاً ! ». فعاد اليه فانشده القصيدة التي في شعر الحطيئة[1] يمدح بها ابا موسى الاشعري . فقال له بلال : « قد علمت ان هذا شيء قلته انت ونسبته الى الحطيئة. والّا فهل كان يجوز ان يمدح الحطيئة ابا موسى بشيء لا اعرفه ، وانا اروي شعر الحطيئة ؟ ولكن دعها تذهب في الناس. » ووصله.[2] هذا الشائع - ولكن المدائني صحّح نسبة هذه القصيدة ، وعاد صاحب الاغاني[3] فذكرها للحطيئة دون اشارة الى ما تقدم سوى قوله : « انشدها حماد بلال بن ابي بردة ولم يكن عرفها فوصله » . ومهما يكن من صحة الحادثة فانها معقولة ، وليس تلك الفعلة بغريبة من حمّاد ، ونحن نعرفـه ناحلًا للكثير من الشعر الجاهلي[4].

---

١) الديوان (طبعة مصر) : ص ٣٤.

٢) ابن سلّام : طبقات الشعراء (طبعة Hell) ص ١٥ - الاغاني ٢ : ٥١ ؛ و ٥ : ١٧٢.

٣) الاغاني ١١ : ٢٩.

٤) راجع حادثته مع المهدي حين اقرّ له بصنعه بعض ابيات اضافها الى زهير ، الروائع ٢٥ : ١٨ و ١٦.

هذا وفي الديوان عدة قصائد ذُكر في اولها انه لم يروها المفضل او لم يروها غيره ، وفيه دليل على مسوّغ الشكّ بصحتها . وهناك قصيدة قصصية من اروع ما كُتب في نوعها لم ترد في شرح السكري ، ولكن اضافها الى الديوان المستشرق غولدسيهر عن بعض النسخ ، وفعل فعله الشنجيطي فأخذناها عنهما[1] . ولكن هذا لا يجزم بكونها لغير الحطيئة . كما ان تصرُّف الرواة في غيرها لا يوجب الشك بكل الديوان . ومن الواضح ان اكثر قصائده ثابتة لا شكّ فيها كالسينية في هجاء الزبرقان ، وما شاكلها في النفس والطريقة ، وهو كثير .

## فنه

كان الحطيئة يلازم زهير بن ابي سُلمى ويروي له[2] ؛ فتشرّب منه صفات في الصناعة الشعرية ، وروحاً في التأليف ، وذوقاً في الوصف ، سمت بشعره الى درجة عالية ، حتى عدّه كثير من شيوخ الادب في مقدّمة الشعراء . فجعله صاحب الاغاني من « فحولهم ومتقدّميهم ، متصرّفاً في جميع فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب ، مجيداً في ذلك اجمع .»[3] وقال اسحق انه « اشعر الشعراء بعد زهير »[4] . اما كثيّر الشاعر فجاهر انه « اشعر الناس »[5] وكان الاصمعي يعجب بشعره ويتأسف لكونه افسده بهجاء الناس وكثرة الطمع ، وقد كتب له بليلة واحدة اربعين قصيدة[6] .

اما تأثير زهير فيه فواضح لمن تصفّح الديوان ، خصوصاً في القصائد المدحية ومقاطع الوصف ، وهو يتجلّى بأمرين : الاول من حيث الصناعة الشعرية وما اليها من السبك والتنسيق ؛ والثاني من حيث التعابير والاوصاف واستغلالها على طريقة خاصة ورثها زهير عن أوس ، واورثها ابنه كعباً ، وتلميذه الحطيئة .

ولا غرابة ان يتأثر الحطيئة باسلوب زهير اولاً ، وهو يرى فيه ابلغ ما

---

١) اطلبها في آخر هذا الدرس

٢) وقد لازم ابنه كعباً ايضاً وطلب منه ان يقول ابياتاً يجعل فيها نفسه اول الشعراء ، ويثنّي بالحطيئة ، ففعل .

٣) الاغاني ٢ : ٤٢ .　　٤) الاغاني ٢ : ٤٨ .

٥) 〃 ٢ : ٦١ .　　٦) 〃 ٢ : ٥٠ .

وصل اليه الشعر ، اذ ذاك ، من متانة ، ورزانة ، وقوّة سبك ، الى دقة في الصنعة وطول صقل يتراجع امامهما من اراد القول السهل السريع ، ومن رغب في الشعر الفطري « المطبوع » . أعجب الحطيئة بهذا الكمال في « الحوليات » ووقف على سرّه ، ولا سرّ فيه الا كثرة الشغل والتنقيح ، فاقبل يفضله ويقول : « خير الشعر الحولي المنقّح المحكّك »[1] ، واخذ يسير على منواله فينقّح شعره ويصحّحه حتى ادرك قوة سبك ، وسلامة تركيب كاد ينعاهما عليه الاصمعي بقوله : « زهير والحطيئة واشباههما عبيد الشعر ، لانهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . »[2] وعرفهما له ابن سلّام وابو عبيدة فقالا : « كان متين الشعر ، شرود القافية — اي سائرة في البلاد تشرد كما يشرد البعير — وما تشاء ان تطعن في شعر شاعر الا وجدت مطعناً ، وما اقل ما تجد ذلك في شعره . »[3] يدلنا على ذلك ايضاً قول الحطيئة نفسه عن استاذه زهير ، وقد سُئل عنه فاجاب ، مفضّلاً فيه تلك القوة العقلية والقدرة على تكييف الشعر كما شاء ، الناجمة عن كثرة العمل وطول الممارسة ، قال : « ما رأيت مثله في تكفّيه على اكتاف القوافي ، واخذه بأعنّتها حيث شاء من اختلاف معانيها امتداحاً وذمّاً . »[4]

وكان لا بدّ ان يمتدّ اثر زهير في نفس الحطيئة من الاعجاب بالصناعة الخارجية والسير على طريقتها الى تذوّق اساوب التفكير نفسه والاخذ بنسق التصوير ايضاً ، فلم يلبث التلميذ ان اصبح ذا ذوق زهيري تامّ يستعمله في قصائده المدحية الفخمة السبك ، الجزلة المطالع ، وفي اوصافه الحسّية ، الوضعية الصور ، المستوفية كل شروط الفنّ ؛ حتى اصبح من الصعب علينا ، اذا قرأنا رائيته في مدح شمّاس :

عفا مسحلان من سُليمى فحامره تمشّي به ظلمانه وجآذره ،

او داليته في مدح آل شمّاس ايضاً التي يقول فيها :

---

١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء (طبعة de Gœje) ص ١٧
٢) ابن قتيبة : في الموضع نفسه .
٣) ابن سلّام : الكتاب المذكور ٢١ — والاغاني ٢ : ٤٦ .
٤) ابن قتيبة : الكتاب المذكور ٦١ .

مطاعين في الهيجا مكاشيف للدجى  بنى لهم آباؤهم وبنى الجدُّ

والتي من صورها :

وان غاب عن لأي بغيض كفتهم  نواشئ لم تطرر شواربهم بعدُ

او سينيته المشهورة في هجو الزبرقان ، او صوره الدقيقة التامة من مثل قوله دالاً على سرعة سفره :

وتُضحي الجبالُ الغُبر خافي كأنها  من الآل ، حُفَّت بالملاء المعضَّدِ (١)

او ما شاكل ، اصبح من الصعب علينا ان لا نلمس فيها لمس اليد تأثير فن زهير الذي حدثناه في مقدمة الجزء ٢٥ من الروائع ، فليراجع . وهو تأثير داخلي عميق يتغلغل حتى الروح الشعرية نفسها ، بخلاف تأثير معلقة طرفة الذي نتحققه في دالية الحطيئة ، المأخوذ منها البيت السابق ، وهذا خارجي محض قد يظهر في توافق الالفاظ والتعابير بل الاشطر ، ولكنه لا يعدو ذلك . وكذا القول عن الابيات الحكمية التي كان يرغب فيها شاعرنا ، كقوله :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه  لا يذهب العرف بين الله والناسِ

وقوله :

ولست ارى السعادة جمع مال  ولكن التقيَّ هو السعيدُ
وتقوى الله خير الزاد ذخراً  وعند الله للأتقى مزيدُ
وما لا بدَّ ان يأتي قريبٌ  ولكنَّ الذي يمضي بعيدُ !

فهي ايضاً من تراث زهير الحكمي ، ولكن الحكمة فيها تألفت نوعاً ما ، اذا صحَّ التعبير ، بفضل تأثير القرآن .

وكان يستعمل هذا الذوق الزهيري ايضاً في ما يتذوقه من شعر سلفائه ومعاصريه ، بدليل ان كل الابيات التي ذكر الرواة ، في احاديثه المختلفة ، انه كان يفضلها على سائر الشعر ، او يفضل اصحابها على غيرهم بسببها ، لا تعدو ان تكون حكمية موجزة ، او تصويرية دقيقة من مثل :

لا اعدَّ الاقتارَ عدماً ، ولكن  فقد من قد رزيته الإعدامُ
و  أفلحْ بما شئت ، فقد يدرك بالضـ  ـعف ، وقد يخدع الأريبُ !
و  مَنْ يسألِ الناس يحرموه  وسائل الله لا يخيبُ !

---

١) الديوان (طبعة مصر) ، ص ٢٤ .

وعدد كثير من ابيات زهير نفسه[1].

ولا يؤخذ من هذا ان الحطيئة تأثر بزهير الى درجة استغرقت شخصيته ، وقطعت عليه اساليب الابتكار . لا ! لقد عرف ان يستفيد من تلك المُثل ، ولكنه ظلّ محتفظاً بنفسيته الخاصة . إستعمل الذوق الزهيري المكتسب ، ولكنه اضاف اليه ما امتاز به من رقة تجلّت في ابياته الاستعطافية ، ومن ولوع بالعبث ورغبة في الظرف رافقاه حتى منتهى حياته فظهرا في تلك الوصية الغريبة ؛ ومن مقدرة على استعمال التهكم الدقيق اللطيف الشديد المفعول في المتهكَّم عليه . هذا من اشهر ميزات الحطيئة في هجائه ؛ وهذا في عرفنا ، افعل سلاح كان يستعمله في رغباته الكثيرة فيرعب الناس ويجبرهم على قطع لسانه وشراء اعراضهم . ولقد كان يعرف من نفسه هذه المقدرة حتى انه كثيرًا ما كان يجيب من يسأله عن اشعر الناس بان يخرج لسانه ، ويقول : « هذا ، اذا طمع ! »[2] واذا طمع معناها : اذا اراد الهجاء للتهديد . وايّ هجاء اوفر تأثيرًا بتهكمه من قوله يحرّض القوم على الردّة ، فيجعل الاسلام « دين ابي بكر » ، ويجعل الخلافة « متاعاً يورثها بكرًا بعد موته » فيقول :

اطعنا رسولَ الله ، اذ كان بيننا ؛ فواعجبا ، ما بال دين ابي بكرِ ،
ايورثها بكرًا اذا مات ، بعده ؟ فتلك ، وبيتِ الله ، قاصمة الظهرِ !

وكان احياناً يتلطف في التهكم حتى يخفى الا على اصحاب البصيرة ، كما في البيت الذي هجا به الزبرقان وهو :

دعِ المكارمَ ، لا ترحل لبغيتها واقعد ، فانك انت الطاعم الكاسي !

فشكاه الى عمر ، فأجبر هذا على استفتاء حسّان بشأنه . فسأله : « أتراه هجاه ؟ » قال حسان : « قد هجاه وسلح عليه . »[3] ومعنى البيت ان مروءة الزبرقان لا تعدو ان يأكل ويلبس .

بهذه الطريقة كان ينال غايته من الناس اذ يأتيهم عن طريق مقامهم في المجتمع وما يرغبون فيه من التبجح بكرم الفعال ، فيتهكم عليهم ، ويعبث

١) اطلب في ذلك ابن عبد ربه : العقد الفريد ٣ : ١٢٠ – والاغاني ٢ : ٤٧ و ٥٩ .
٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٣ : ١٢٠
٣) راجع في ذلك . الاغاني ٢ : ٥٢–٥٧ .

بهم ، وينعتهم بالبخل واللؤم ، فيهابونه . فلم يكن بحاجة الى الاقذاع في القول ، والفحش في الكلام ، والبذاءة في التعابير . وهذه صفة ثانية تميز هجاءه عن هجاء بعض من تقدّمه من الجاهليين كالمتلمس وطرفة ، ومن تلاه من الاسلاميين كالفرزدق وجرير وبشّار . وهي صفة مهمّة لا نكاد نتصوّرها في شعر رجل كالحطيئة وقف حياته على الهجاء وجعل منه مهنته ومكسب معاشه. ولكنها امر واقع نفهمه اذا تعمقنا في درس الخلاف بين نوعَي الهجاء المذكورَين ، ومن ثم خلوّ هجاء الحطيئة من الفحش . ولعل السبب في ذلك ان الحطيئة كان نفعياً لا يتطلّب من وراء الهجاء الا الكسب . وكان الذين يهجوهم من السراة في قومهم ، واعظم ما يحافظون عليه سمعتهم من حيث الكرم والجود. وليس لهم على الشاعر سلطة امارة او ولاية يضغطون عليه بواسطتها . بينا كان الفرزدق وجرير يتهاجيان ، وكلاهما شاعر يتطلّب الزراية على خصمه ، فيهجو آدابه ، ويفحش في ذكر اصله ، ولا يتعرّض لبخله او كرمه لان هذا اقلّ ما يكترث له الشاعر . اما المتلمس وطرفة وبشّار ، فكانوا في بذاءتهم ، يهجون ملكاً او خليفةً ، وهم يقصّرون عن التأثير عليه بذكر البخل او نكث الوعود ، فلا يجدون ما يشفي غليلهم الا الانتقام منه بالسباب وفحش الكلام.

وعلى الجملة نرى شعر الحطيئة فخماً في المديح ، رقيقاً في الاستعطاف ، أليماً في الهجاء..

واذا ثبتت للحطيئة تلك القصيدة القصصية ، بل الرواية البديعة ، التي ألحقت بديوانه ونشرناها في آخر هذا الدرس ، كان له فضلٌ جديد في الشعر القديم ، وهو فضل استعماله هذا النوع القصصي على اتمّ ما يتصوّره ارباب الفنّ ، اذ يورد رواية كاملة بمقدّمة يعرض فيها الاشخاص واحوالهم وزمانهم ومكانهم ، وعقدة يسرد فيها الحادثة ، وخاتمة يذكر فيها حال الجميع . كل ذلك باسلوب غاية في الموافقة من حيث الرشاقة والايجاز ، والتنقل بين الانشاء والخبر ، وحسن استعمال الالفاظ . فاذا ثبتت ، ولا نخالها الا ثابتة ، عرفنا ناحية جديدة من شخصية الحطيئة تفوق سائر نواحيها المعروفة ، وتدعو الادباء الى ان يهتموا بها مزيد الاهتمام.

# ضيافة بدوية

قال الحطيئة في اعرابي جواد ، صاحب صيد ، ألوف للفلوات :

وطاوي ثلاثٍ عاصبِ البطنِ ، مُرملٍ ،
ببيداءَ لم يعرفْ بها ساكنٌ رسما ، (١)
اخي جفوةٍ ، فيه من الإنس وَحشةٌ ،
يرى البؤس فيها ، من شراسته ، نُعمى (٢)
تفرّد ، في شِعبٍ ، عجوزًا إزاءها
ثلاثةُ اشباحٍ تخالهمُ بَهما ، (٣)
حُفاةٌ ، عُراةٌ ، ما اغتذوا خبزَ ملّةٍ ،
ولا عرفوا للبُرّ ، مذ خُلقوا طَعما ؛ (٤)
رأى شبحاً ، وسط الظلام ، فراعه ؛
فلما بدا ضيفاً ، تصوّر واهتمّا . (٥)
فقال ابنه ، لما رآه بحَيرةٍ :
« ايا ابتِ ، اذبحني ! ويسّر له طُعما ؛
« ولا تعتذرْ بالعُدمِ ، علّ الذي طرا
يظنُّ لنا مالا ، فيوسعَنا ذمّا ! » (٦)

---

١) الطاوي : الخميص البطن ، الجائع . ثلاث : اي ثلاث ليال . عاصب البطن : الذي يعصب بالخرق ويشدّها على بطنه من الجوع . مُرمل : محتاج . بيداء : وفي طبعة غولدسيهر : تيهاء . الرسم : ما بقي بالارض من آثار الدار . اي هو في مفازة لم ينزل بها احد .

٢) الجفوة : غلظ الطبع . الإنس : البشر . البؤس : الشدة . فيها : الضمير للبيداء .

٣) تفرّد : اعتزل الناس ، والضمير للاعرابي الموصوف سابقاً . الشعب : الطريق في الجبل ، مسيل الماء في بطن الوادي . عجوزًا : منصوب باسقاط الباء والاصل : تفرّد بعجوز . البهم : ج . بهمة : ولد الضأن والماعز ، شبّههم بها لهزالهم .

٤) الملّة : الرماد الحارّ . البُرّ : الحنطة — لم يرد هذا البيت في طبعة غولدسيهر .

٥) بدا : في طبعة مصر : رأى . تصوّر : في طبعة غولدسيهر : تسوّر .

٦) طرا : مخفف طرأ : على القوم : اتاهم فجأةً ، طلع عليهم من بلد آخر .

فروّى قليلاً ، ثم احجم بُرهةً ،
وان هو لم يذبح فتاه ، فقد همّا ؛[١]
وقال : «هيا ربّاه ! ضيفٌ ولا قِرى !
بحقك ، لا تحرمه تالليلة اللحما ! »
فبينا هم ، عنّت ، على البعد ، عانةٌ
قد انتظمت من خلف مسحلها نظما ، [٢]
ظماء تريد الماء ، فانساب نحوها ؛
الا انه منها الى دمها اظما ! [٣]
فامهلها حتى تروّت عطاشها ،
فأرسل فيها من كنانته سهما ،
فخرّت نَحوصٌ ، ذات جحش ، فتيةٌ ،
قد اكتنزت لحماً وقد طبّقت شحما. [٤]
فيا بشرَه اذ جرّها نحو اهله !
ويا بِشرهم لما رأوا كلْمَها يدمى ! [٥]
فباتوا كراماً قد قضوا حق ضيفهم
فلم يَغرموا غرماً ، وقد غنموا غُنما. [٦]
وبات ابوهم من بشاشته اباً
لضيفهم ، والام من بشرها أُمّا .

١) روّى : في الامر : نظر فيه وفكّر . — في طبعة مصر : تروّى .
٢) فبينا هم : في طبعة غولدسيهر : فبينا هما . عنّت : عرضت . العانة : الاتان ، القطيع من حُمُر الوحش . المِسحل : الحمار الوحشي ، وانتظامها من خلفه : انضمامها اليه .
٣) ظماء : في طبعة غولدسيهر : عطاشاً . الا انه : في طبعة غولدسيهر : على انه .
٤) النَحوص : الاتان الوحشية . فتية : في طبعة غولدسيهر : سمينة . طبّقت شحماً : اي امتلأت حتى عمّها الشحم .
٥) اذ جرّها : في طبعة مصر : ان جرّها . اهله : في طبعة غولدسيهر : قومه . الكَلْم : الجرح .
٦) الغُرم : الدين . وقد ورد هذا البيت بعد البيت التالي ، في طبعة مصر .

# حسن علوان الدرزية

او

## الاخت مسيحية الراهبة اللبنانية

بقلم القس انطونيوس شبلي اللبناني
رئيس معاملة جبيل والبترون

٢

## المبتدئة والراهبة مسيحية

قضت ثلاثة اشهر بثيابها العالمية في دير القرن، تمتحن الرئيسة دعوتها، حتى اذا وثقت بصحتها، كتب الرئيس العام المشار اليه الى رئيسة دير راهبات اللعازريات في بيروت يستعلم عن سيرة وسلوك هذه الابنة، وهل هي متنصرة ام لا. فوردته جملة طيبة بحقها، وشهادة بتنصرها، فألبسها اذ ذاك زي المبتدئات الاب بطرس الحائك الجدرفلي، رئيس دير قزحيا، في اول تشرين الثاني سنة ١٨٦٥، وسميت الاخت مسيحية، وكان عمرها عشرين سنة. ولما اكملت سنتي الابتداء، وشحها الرئيس العام بالاسكيم الرهباني، ونذرت امامه وامام الراهبات النذور الرهبانية الاحتفالية في الثاني من تشرين الثاني سنة ١٨٦٧[1].

## مجمل فضائل صاحبة الترجمة

بعد ان استوفينا الكلام عن اطوار حياة الاخت مسيحية علوان وعما حدث لها، يحسن بنا ان نأتي على ذكر لمحة عن مجمل فضائلها الرهبانية والادبية.

---

١) اليك ما جاء عنها في روزنامة دير القرن بحرفيته: «قد لبست الاسكيم الملائكي ونذرت النذر الاحتفالي الاخت مسيحية برمانا من طائفة الدروز. قد اقترنت الديانة المسيحية وسر العماد المبرر وطلبت الرهبنة فقبلها الرئيس العام بأمر السيد البطريرك. وكانت راهبة مهذبة وتعرف اللغة الفرنساوية جيدًا والعربية والسريانية، وذلك من يد الرئيس العام اقرام البشراني في ٢ ت ٢ سنة ١٨٦٧»

وعمّا امتازت به من الصفات الحسان ، تقدّمها خير مثال لراهباتنا الوطنيات جميعاً فيجدن فيها ما يثير في قلوبهنّ حبّ الرغبة في ان ينهجن نهجها ، وينعش في نفوسهنّ روح الحياة الرهبانية الكاملة.

١ً طاعتها

تفرّدت الاخت مسيحية بين الراهبات بالدقّة في حفظ نذر الطاعة . فقد تخلّتْ عن ارادتها لرئيستها واصبحت لا تستقل امرًا ، ولا تتردّد في قضاء عمل تأمر به الطاعة ، سواء كان صعباً او سهلاً . ومن الادلّة على سرعة طاعتها انها اذا كانت في الكنيسة تصلّي ، او في الدير تعمل ، ودعتها الرئيسة ، تركت عملها في الحال ووقفت أمامها مكتوفة اليدين مُطرقة العينين مستعدّة لتتميم ما تأمرها به.

٢ً عفّتها

يدلّك على شغفها بالطهارة كرهُها للزواج ، على ما مرّ بك ، وهجرُها اهلها وموطنها وهي في عنفوان شبابها ، وانحباسُها طيلة العمر بين جدران الدير تمارس ضروب الزهادة والعبادة حبّاً بالله ، وصيانةً لفضيلة الطهارة البادية لكل ناظر اليها من حشمتها وآدابها بجميع حركاتها وتصرّفاتها.

٣ً فقرها

لقد ارتقت الى درجة سامية من كمال الفقر الرهباني . فلم تحبّ ان تلبس ثوباً جديدًا ، واذا اشارت اليها الرئيسة بلبسه اجابت ان يسوع لا يطلب مني ان اكون فقيرةً في باطني فحسبُ بل في ظاهري ايضاً . وكانت فضيلة الفقر ظاهرة للعيان في مرقدها ، وملبسها ، ومأكلها.

٤ً دعتها وضعتها

قد تحلّتْ الاخت مسيحية بهاتين الفضيلتين اللتين حبّبتاها الى كلّ القلوب ، وحملتا كلّ القلوب على اكرامها واحترامها . فكانت تعدُّ ذاتها أصغر اخواتها وتأنف من الاطراء مؤثرة الضعة والمسكنة ، سبّاقة الى كل خدمة حقيرة.

٥ً صلاتها

ان شغفها بالصلاة كان عظيماً . تصرف حصّة كبيرة من النهار والليل جاثيةً امام القربان الاقدس ، متأملةً او مصلّيةً . ولم تُهمل قط الصلوات السبع القانونية على القرّاءة . واماً عبادتها للسيدة العذراء فحدّث عنها ولا حرج فكانت مغرمة بتلاوة ورديّتها غراماً . ومنذ اندمجت في سلك بنات اخويّة الحبل بلا دَنس في دير الراهبات اللعازريّات واناطتْ بعنقها ايقونتها ، بدأت تصلّي فرضها في كلّ يوم وظلّت مثابرة عليه ومحتفظة بتلك الايقونة الى حين وفاتها ، ولكثرة ما كانت تقبّلها نعُمتْ وملستْ .

٦ً مثابرتها على العمل

عُهدت اليها خدمة الكنيسة في الاديار الثلاثة التي سكنتها : دير راهبات المحبة ، ودير القرن ، ودير الظهر . وفي كلها كانت بليغة النشاط والعناية بتنظيفها وترتيبها مّما دلّ على حسن ذوقها وجزيل تقواها .

وكانت تتمّ سائر اعمالها بمنتهى الصدق والنشاط والامانة . ولم تُرَ في كلّ حياتها الرهبانيّة بطّالة قط ، وكان يصعب عليها ان تذهب دقيقة من الزمان ضياعاً . وفي مرضها القصير والاخير ، قبل وفاتها بيومين ، كانت تتسلّى بفتل مغزلها ، وهي مستلقية على فراشها . ومن اقوالها : « ان الراهبة اذا كانت بطّالة لها اعداء كثيرون يحاربونها وينتصرون عليها . واما اذا كانت مشتغلة ، فلها عدوٌ واحد يمكنها التغلّب عليه بسهولة . »

٧ً زهدها في الدنيا

كانت الاخت مسيحيّة من أشدّ الراهبات ازدراء بالحياة الدنيا وبزخرفها الباطل ، لا يستهوي قلبها شيء من نعيمها ، ولا توقفها محنة عن اطراد التقدّم في معارج الكمال الرهبانيّ . وقد أخلتْ عقلها من الشواغل الدنيويّة وصبّت بكل جوارحها الى التعمّق بالحياة الباطنية ، سادلة ستار النسيان على ما حدث لها من الحوادث وما انتابها من المكاره والخطوب ، لا تتولاها سآمة ولا كدر من مداومة الصلوات والاماتات وسائر اعمال الحياة الرهبانية .

كانت راغبة اقصى الرغبة في الاعتزال والانفراد عن الناس ليتسنى لها ان تحيا حياتها الباطنيّة، متمثّلة بامائل القديسين الذين اعتزلوا عشرة الناس جهدهم وآثروا ان يعبدوا الله في الخلوة . وقد قال قائـل : «كلّ مرة كنت بين الناس ارتددتُ انساناً مُنتقصاً»[1] لذلك كانت مغتبطة بعزلتها المؤنسة التي تعيش فيها مع يسوع عيشةً روحية لذيذة لا يعكر صفاءها معكر، واضعةً نصب عينيها هذا القول : «من رام التوصّل الى العيشة الباطنة الروحانية ينبغي له ان يعتزل مع يسوع عن الجميع»[2].

ومن حين خروجها من برّمانا لم تعد تحبُّ ان ترى من اهلها احدًا ولا ان يؤتى على ذكرهم امامها، ولم تُظهر يوماً رغبةً في مقابلتهم لدى حضورهم مرات الى دير راهبات المحبـة، ودير القرن، ودير الظهر . وكانوا يأتونها حاملين السلاح في طي اثوابهم قصد اخذها قسرًا او قتلها على ما تحقّق عنهم فيما بعد .

قصدت مرة شقيقتها وابنتها دير مار يوسف الظهر، وطلبتا من الرئيسة بتذلّل وإلحاح مقابلة الاخت مسيحيَّة، فاشارت اليها الرئيسة ان تواجهما قائلة لها: «هل تخشين شرًّا من مقابلة اختكِ وبنت اختكِ وهما امرأتان ضعيفتان لا تستطيعان إخراجكِ من الدير ولا الاضرار بكِ ؟» فاجابتها: «تركتُ اهلي في بادئ الامر فلا أُحبُّ بعدُ ان اراهم لان السيد المسيح قال : ان كان احدٌ يأتي اليَّ ولا يُبغض اباه وأمه .. واخواته .. فـلا يستطيع ان يكون لي تلميذًا[3] . وقال ايضاً : ليس احدٌ يضع يدهُ على المحراث وينظر الى الوراء يكون اهلاً لملكوت الله[4]» وهكذا خنقت في قلبها تلك العاطفة الطبيعيَّة، واصرَّت على رفض رؤية شقيقتها وبنتها.

٨ً تأسيس دير الظهر(٥ وسكنها فيه

تحدّثت الاخت مسيحية، وهي في دير القرن، ذات يوم، الى الام اورسلا

١) كتاب الاقتداء بالمسيح سفر ١ فصل ٢٠ ٢) السفر عينه

٣) لوقا ١٤ : ٢٦ ٤) لوقا ٩ : ٦٢

٥) طالع ما كتبناه عنه في رحلتنا الى شمالي لبنان (المشرق ٢٤[١٩٢٦]:٤٦٦-٤٧١) وقد وعدنا هناك باننا سننشر ترجمة هذه الراهبة الفاضلة مسيحيَّة.

ضومط المنادية رئيسة دير مار يوسف الظهر الحالية قالت: «ألا يمكن انشاء دير للراهبات في جهات جبيل والبترون؟» اجابتها الام اورسلا: «ليس ذلك بمستحيل اذا صليتِ وطلبتِ من الله. واذا صحّ هذا الظنّ يكون تشييده على اسم القديس يوسف.»

شرعت عندئذٍ الاخت مسيحيَّة بعمل تساعيَّة توصّلاً الى نيل هذه الغاية، ولما اتمتها أتت الى الامّ اورسلا قائلة وهي تصفق بيديها فرحاً: «ستتحقق أمانينا ويصير دير، لاني حلمت في نومي اني جاثية امام الصليب اخاطبه بهذه الكلمات: بحق جراحاتك يا سيدي، سهّل الطُرُق لعمار دير للراهبات في تلك البلاد ويكون على اسم مربّيك القديس يوسف، فرأيت المصلوب قد رفع يده عن الصليب ومدَّها اليَّ وقال: يصير دير. يصير دير.»

كانت تروي هذا الحلم مراراً، والبشرُ يطفح في وجهها. وقد عرضت على الامّ اورسلا ان تستدعي اليها شقيقها الخوري اغناطيوس ضومط ففعلت. ولما حضر اخبرته بما كان من حلم الاخت مسيحيَّة، وألحّت عليه ان يبذل قصارى جهده لتحقيق هذه الامنيَّة، فوعدها خيراً ورجع يسعى لدى السيد البطريرك يوحنا الحاج، ففاز منه بأذن وباشر بناء هذا الدير بمساعدة رهبانيتنا، على تلّة تُسمّى ضهر وطا سفرتا، قريبة من قرية جربتا. وكان من اقوى المعاونين له على تذليل الصعاب، المطران يوسف دريان.

لما اكتمل بناء اربعة أقبية وستّ غرف واصبحت صالحة للسكن، انتقل اليه من دير القرن، سنة ١٨٩٧، ست راهبات من عدادهنّ الاخت مسيحية، وعبدة الله الاخت رفقا الريّس التي نشرنا ترجمة حياتها في المجلة البطريركية المارونيَّة، ثمّ طبعناها على حدة.

### ٩ً تثقيفها للمبتدئات

لمّا بلغت الاخت مسيحية الى كمال قداسة في السيرة، اتفقت الكلمة على تعيينها معلّمة للمبتدئات في دير الظهر، فكانت تتعهَّد هذه الغراس الغضّة الصغيرة بافضل عناية واحسن تربية، وتسهر على تنشئتهنَّ راهبات تقيات،

باذلة ما في وسعها بتثقيفهن على المبادئ القويمة ، طابعة في قلوبهن حب القدوة الصالحة المتجلّية في سيرتها والناطقة في تعليمها ، عاطفة عليهن عطف الامهات على احبّ البنات.

كانت مثالًا لهنّ في الدقّة بحفظ القوانين بحيث لا تدع هفوة تمرّ بدون عقاب. وكانت تلبس لباس الخشونة للمبتدئات المتوانيات في تتميم واجباتهنّ ، وتسلك مسلك الرقة مع النشيطات منهنّ ، جامعة بين العدالة والشفقة . وكان أمقت شيء لديها الكذب ، لانها هي لم تكذب كذبة بسيطة في كلّ حياتها الرهبانية ، على ما تشهد الام اورسلا ضومط التي عاشرتها سنين طويلة . لذلك كانت تحذّر المبتدئات من هذه الرذيلة بقولها : « هلّا رأيتنّ هذه السماء التي فوق رؤوسكنّ ؟ فاني أفضّل ان تهبط الى الارض على ان تكذب واحدة منكنّ كذبة بسيطة . واذا خطر لاحداكنّ ان تقتلني ، فلتقل بصراحة ان فكر القتل مرّ ببالها ، ولا تكذب ، فاقرارها بذنبها يستحقّ المغفرة.» وهكذا غرست في قلوب المبتدئات غرسة الصدق الجميلة.

١٠ً شهرة فضائلها

ثمّ عرف هذه البنفسجة الطيّب ، ولهجت الالسن بقداسة سيرتها ، وكبرت منزلتها في العيون ، واعتبرتها الراهبات واهالي القرى المجاورة لدير الظهر ، راهبة قديسة . فكانوا يقصدونها طالبين صلاتها لشفاء مريض او لتفريج مكروب.

سألها واحد من اهالي صفار الصلاة لابلال مريض ، فاسرعت الى الكنيسة تصلي واشعلت مصباحاً من الزيت امام مذبح سيدة لورد ، فانطفأ المصباح ثلاث مرات . فاستدلّت على ان المريض مائتٌ لا محالة واخبرت الرئيسة. وفي اليوم التالي مات . وقد جرت حوادث كثيرة على هذا المنوال تبرهن على ان ايمانها بالله كان شديدًا ، ورجاءها به وطيدًا ، وحبها له عظيماً.

زار المطران بولس بصبوص دير الظهر واخذ يُطرئ فضائل الاخت مسيحيّة وممّا قاله: « اني لا أعجب من بنت درزية تصير مسيحية ثم راهبة ، لان للعناية

الالهية اسراراً غامضة. يعجز العقل عن ادراكها ، بل أعجب من تفوقها على الراهبات بكمال سيرتها التي أهلتها لان تكون معلمة للمبتدئات »

وجملة القول ان الاخت مسيحية علوان قضت في دير القرن اثنتين وثلاثين سنة ، وفي دير الظهر ثماني عشرة سنة ، وحياتها فيهما حافلة بأبهى الفضائل والمحامد ، واجلّ الخلال والمناقب.

كانت وادعة النفس ، مطمئنة الضمير ، أليفة السكينة والدعة ، مرهفة الذهن ، شجيعة القلب ، صبورة على الشدة ، بارعة الجمال ، مستوفية محاسن الخَلق والخُلق.

## وفاتها

رأى الله عبدته هذه نضجت كالثمرة وحان وقت قطفها ، فاحبّ ان ينقلها من حديقة الرهبانية الارضية الى جنة ملكوته السماوية ليمتعها بالسعادة الخالدة جزاء مبرّاتها الكثيرة . فقد استمرّت متمتعة بصحة العقل والجسم الى يوم وفاتها ، غير منقطعة عن الرياضات اليومية . وشاء الله ان يلهمها دنوّ أجلها ، فاخبرت رئيستها عن الشهر الذي تموت فيه ، واخذت تستعدّ لملاقاة ربّها بما في نفسها وقلبها من حرارة وشوق . وقد صدقت بما تنبأت.

ففي اليوم الخامس من شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٥ ، تناولت الزاد الاخير ، ومُسحت بالزيت المقدّس ، وهي في انتباه كامل . وما زالت تردّد هذه العبارة : «يا يسوع ومريم ومار يوسف ، أعينوني . بين ايديكم أضع روحي» ، حتى رقدت بسلام رقاداً ابدياً . واذا اضجع البار فيرقد بسلام ويكون رقاده عذباً[1] .

يقول المثل : من غاب عن الانظار ، غاب عن الافكار ، ولكنه لا ينطبق على الصدّيق لانّ ذكره يحيا الى الابد ، ولا يزال الخلف يتناقله عن السلف ، على تراخي الاجيال والاحقاب.

---

١) امثال ٣ : ٢٤

**لذة وفائدة**

# لماذا تدخنون ؟

« ان اردت ان تتخلص من عادة مضرة ، فانظر نتائجها في غيرك ، يتبين لك فسادها ، وتشمئز نفسك ، اذ ذاك ، من اتباعها . »

هذا ما قاله احد اطباء الفرنسويين لمدخن مريض لم يكن له مقدرة على ترك التدخين .

وقد قال المدخن عن نفسه :

بعد سماعي هذا الكلام ، اخذت انظر بعين الازدراء الى افواه المدخنين وقد اعوجها الغليون ، والى شفاههم وقد فرقها السيكار ، والى شواربهم واصابعهم وقد حمرها دخان السيكارة . وكنت اشمئز عند ما اراهم ينفضون رماد سيكاراتهم في المنازل فيوسخون الطنافس والمقاعد ، او ينفخونه في الهواء فيفسدونه على الحاضرين . ثم يسعلون ويبصقون متضايقين ، شاكين من وجع الحلق والحنجرة . . . ولم ازل على هذه الحال حتى نفرت نفسي من الدخان . ومن رائحته ؛ وصرت اتجنب كل من يحمل اثرًا منه ، ضاحكًا من اولئك المغرورين الذين يضيعون مالهم ، وصحتهم ، ووقتهم ، دون فائدة .

ولم اقف عند هذا الحد . فاخذت ابحث عن الاسباب ، بل عن اشباه الاسباب والتعاليل ، التي يخترعها المدخنون دائمًا ليبرروا تجاه انفسهم ، او تجاه ذويهم ، ادمانهم على تلك العادة السيئة . فخرجت من بيتي ، ذات صباح ، قاصدًا احد المجتمعات . وبينا انا في الطريق ، رأيت عدة اولاد مختبئين وراء جدار عالٍ ، يدخنون ، ثم يحنون رؤوسهم لنفخ الدخان بين ثقوب الجدار . فوقفت قليلًا اتأمل بهذا المشهد ، ثم قلت :

— لماذا تدخنون ؟

فاجابوا بكل بساطة :

— لنفعل مثل الرجال الكبار...

وطرحت بعدئذ السؤال نفسه على الرجال «الكبار»، فاجابوا بكل اسف :

— لان هذه العادة تمكنت منّا، منذ كنّا صغارًا.

وهكذا فان اكثر الناس يدخنون ولا يعرفون لماذا... يدخنون ليفعلوا مثل غيرهم. فهم يقلّدون مقلّدي نيكوت، الذي كان يقلّد، في تدخينه، احد البرابرة؛ وهذا الاخير كان يقلّد رجلًا كان يدخن ليبهج معاصريه، فيعجبوا بمقدرته على اخراج الدخان من فيه وأنفه... عُجب وتقليد! هما قطبا المحور الذي تدور حوله البشرية.

سألت، بعد ذلك، سيدة كانت تحمل سيكارة بين اصبعين دقيقتين عن السبب الذي دفعها الى التدخين؛ فانفرجت شفتاها بابتسامة لطيفة جمعت بين الزهو والحريّة والبساطة، ورنت بجنوّ الى خواتمها الثمينة المتلألئة الاحجار. ففهمت انها تدخّن لتظهر للناس تلك الثروة.

— وانتِ، ايتها الآنسة، لماذا تدخنين ؟

فنظرت اليَّ الثانية باعجاب، ورفعت فمًا من العاج المذهب، وقالت :

— بربك، الا تراه جميلًا ؟

فتبسمت قليلًا لهذا الجواب. واذا بالثالثة تقول بصوت عالٍ :

— ان فم سيكارتي اغرب من هذا. انظر، الا تجده بديعاً ؟

فنظرت... واذا بانبوب من البلّور يلتوي بعضه على بعض كالحيّة. فهززت رأسي. واتمت السيدة :

— انه جميل للغاية. وهو من آخر طراز مستعمل في باريس.

وخرجت من هذا المعرض مكتفياً بما رأيت وسمعت.

فذهبت الى شيخ منفرد لا ينقطع عن التدخين. ولم اكد اطأ عتبة الباب، حتى سمعته يسعل ويبصق. فدخلت، وسلمت. وسألته السؤال المعهود. فسعل ثانية، وبصق، ثم وضع غليونه باعتناء كلّي على طنفسة من

المخمل الاخضر ، وقال :

– اني ادخن لامتحن صلاحية هذه الغلايين التي يعملونها تارة من الخزف وطوراً من الخشب الاعتيادي . وكل هذه الانواع تفسد رائحة الدخان ، وتنغص عيش المدخن الجيد و . . .

ثم اخذ يشرح كيف يجب ان يكون الغليون ليحفظ رائحة التبغ .

فتركته يتكلم عن غلايينه ، وخرجت قاصداً احد الفلاسفة المدخنين ، فقال لي :

– اني ارى من خلال دخان السيكارة انكاراً صريحة ، وآراء واضحة ، لا اقدر على الحصول عليها بدون التدخين .

وقد كان احد الشعراء اقرّ لي بكل حرية قائلاً :

– عندما ادخّن ، اسبح في عالم الخيال ، فتغيب عني المادّة وما تجرّه من حقائق واضحة صريحة . وهذا ما يساعدني على نظم الشعر الخيالي . . .

فتعجبت للتضاد بين التأويلين ، وتركتهما يهيم الاول في فلسفته الصريحة ، والثاني في شعره الغامض . وقصدت صديقاً من كبار المدخنين ، فرأيته متروياً في حجرته شاحب اللون ، مصفرّ الاصابع ، وقد بحّ صوته من السعال المتواصل ، والسيكارة لا تزال بيده . فسلمت وجلست ، ثم القيت عليه سؤالي المعهود . فسكت ؛ واجابت امرأته ممتعضة :

– انه ، على ما اظن ، يدخن لينقطع الى خيالاته . لانه كلما اشعل سيكارة ، انتقل من هذا العالم ، فاكلمه واحادثه دون جدوى . ولهذا ارى ان افكاره تسبح في الفضاء تابعة مجرى دخان سيكارته . ويالعظم مصيبتي اذا تناول الغليون . لان دخان هذه الآلة الجهنمية يذهب ، كما لا يخفى ، الى ابعد ما يذهب اليه دخان السيكارة .

فقلت ضاحكاً :

– لله درك من عالمة بامور النفس ، يا سيدتي .

فابتسمت ، وتناولت غليوناً كبيراً فقلبته مدة بين يديها ، وأرتني اياه قائلة :

— لا اشك ان هذا الغليون انكليزي . لان من يدخن فيه يلزمه وقت طويل . وقد شغف به صديقك منذ اسبوع حتى اصبح لا يفارقه . فارجو منك ان تنصحه بالاقلاع عن هذه العادة المشؤومة.

فقلت : لقد اقلع الانكليز انفسهم عن التدخين بمثل هذا الغليون ، لانهم الآن شديدو الحاجة الى الشغل والعمل.

ثم تناولنا القهوة ، وتابعت الحديث :

— لا شك ان التدخين عادة مضرة بكل الناس ، سواء كانوا كبارًا او صغارًا ، رجالًا او نساء...

قالت هذا ، وفتحت علبة دقيقة الشغل ، فاخرجت منها سيكارة نحيفة اشعلتها بكل هدوء..

فصحت بها مندهلًا :

— وانت ايضاً تدخنين !...

— وحقك ، اني لا ادخن الا لأطرد عني رائحة غليونه ... الا ترى ان دخان الغير لا يحتمل ؟

— الحق معك !

— تفضل اذًا هذه السيكارة.

فاشعلت السيكارة التي كانت تجربة هائلة ارجعتني حالًا الى عادتي المشؤومة ، فعدت من كبار المدخنين . وما ذاك الّا لاطرد عني رائحة دخان الغير ...

ف . ا . ب

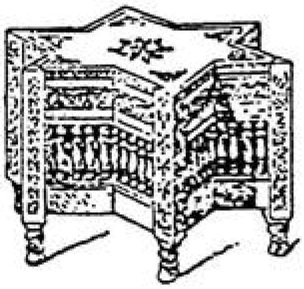

# السجون ونظام التأديب

نظر اجتماعي للاب توتل اليسوعي

**كيف** هي السجون وكيف يجب ان تكون ؟ أهي قفص من حديد تقفلت شبكاته المعدنيـة على وحوش ضواري ، ام مدرسة لتأديب المجرمين الذين اهمل الدهر تأديبهم ، فتاهوا في بيداء الجهل وحطوا في معاطن الهوان ؟ أتكون السجون « قبرًا من قبور الاحياء » كما وصفها المأمون[1] او مأوىً لعلـل الارواح ومستشفىً للنفوس ؟ أهي دار العذاب المشبهة بالجحيم المكتوب على بابها الآية التي قرأهـا الشاعر دانتي على باب جهنم : « ايها الداخلون اليها اطرحوا عنكم كل امل » ؛ ام هي مكان التطهير والتكفير حيث يتاح للمعتقلين ان يلمّوا شتات افكارهم. ويعودوا الى ربهم تائبين ، حتى اذا انتهت مدة سجنهم رجعوا الى ما بين الناس وعوضوا بسلوكهم الحسن عن سالف زلاتهم ؟

ان مسألة السجون خطيرة ووجوهها عديدة ، وهي تشمل ناحيةً من نواحي حياتنا السياسية والمدنيـة والاجتماعية والاقتصادية والدينية . والسجون كثيرة في بلادنا ، غاصة بالسكان ، على رحبها ، بين اقبية السرايات القديمة والبنايات الحديثة العهد . وان الحكومة تبذل في ايامنا همـةً تُذكر لها فتشكر ، في سبيل صحة المحبوسين البدنية وخاصةً في السجون المبنية حديثاً ، كسجن بيروت ففيه دار للمرضى وطبيب وممرض . وقد يؤتى الطعام الى السجناء كل

---

١) النويري : نهاية الارب ٦ : ٦٧ ، دار الكتب المصرية

يوم مرتين ، نظيفاً ؛ وتراعى في السجون حقوق الانسانية على الاجمال . فمن لا يسبب سيأ للقصاص لا يُهان ولا يُشتم ولا يُضرب . ولعل بعض السجناء المفترشين الصوف ، المتوسدين الوسائد ، القاضين ساعاتهم بين قراءة وحديث وتدخين يكونون في حالة يحسدهم عليها ذوو الكدّ والتعب من العمال خارج السجون . والرأي العام قلما يلتفت الى شؤون السجون في البلاد ، وغاية ما يتوخى فيها الناس ، هو ان تكون ابوابها محكمة الاغلاق ، لئلا يفرّ سكانها المجرمون فيعيثوا في الارض فساداً .

على ان اولياء الامر ممن تعهد اليهم الامة باصلاح شؤونها ومداواة جراحاتها ينظرون الى السجون بعين غير عين العامة ، ولا يكتفون بان يجاوهـا داراً للاعتقال ، ولكن يرغبون في استثمارها غاية الممكن فتكون ايضاً داراً للتأديب ولشفاء امراض النفوس . ولما كان هذا العلاج يحتاج الى اطباء روحيين من رجال الدين خاصة ، فقد اخذت الحكومة السورية اخيراً تدعو رؤساء الاديان الى اقامة المرشدين على السجناء ، وسبقتها حكومتنا اللبنانية العزيزة فسهلت لرجال الدين دخول السجون منذ سنوات عديدة . ولا يسعني في هذا الصدد الّا الثناء على وزارة الداخلية لسماحها في الاذن الذي تخوله الكهنة للتردد على السجون لاعطاء السجناء النصائح الدينية . على ان زيارة رجال الدين السجون من حين الى حين لا تكفي لوفاء المعتقلين حقهم . وما زال امر العناية الادبية بهم مشكلاً عويصاً لم تحلّ عقده .

زار صاحب المقال السجون في بيت الدين وحلب ودير الزور وبعبدا وزحلة وبعلبك وغيرها ، وعلى الخصوص في بيروت حيث أقيمت الرياضات والقيت المواعظ مراراً . واختلط بالمسجونين على اختلاف المذاهب والاجناس من رجال واحداث ونساء ومرضى واصحاء . واجتمع بمدير السجون الانكليزي في بلاد عكا ، ايام كان سجناء فلسطين يشتغلون في تعبيد الطريق الكبرى بين الناقورة وعكا ، ووقف على طرائق مراقبتهم وتشغيلهم . وبين يديه وثائق رسمية مأخوذة عن احوال السجون في اوربة واميركة ؛ فقابل بين سجوننا وسجون الافرنج ، فرأى ان كثيراً من النقائص والعيوب المشوّهة

دور الجزاء والتأديب ، موجودة في الشرق وفي الغرب معاً . كأنّ امرها منوط بطبيعة السجون وخواصها ، اذ هي دور للقصاص والاعتقال لا للرفاهية والانتزاه . على ان الامم الراقية صارت تنظر الى وجوه التأديب واصلاح المسجونين الادبي ، اكثر مما كانت تنظر الى ذلك في الماضي ، وتحققت ان ذلك الاصلاح لا يتمّ الّا بشروط عدة منها مادية ومنها ادبية فاقبلت على العمل بموجبها في تنظيم سجونها وصارت بذلك قدوة لنا . وان الغرض من هذا المقال هو البحث في اصلاح حالة السجناء . ولا سبيل الى ذلك الا : اولاً بالكشف على احوال السجون اجمالاً وعلى الخصوص في بلادنا كما هي اليوم ؛ ثانياً في فهم حالة السجناء النفسية كما شخصها الاختصاصيون من اطباء القضاء ؛ ثالثاً في النظر في طرق معالجة امراض السجناء النفسية ، كما يسيرون عليها في البلاد المتمدنة .

## ١

### دار القصاص : القفص الحديدي

ان سجن الرمل في بيروت من احدث البنايات المشادة لاعتقال المذنبين والمتهمين والموقفين ، وسوف يبلغ عدد سكانه عند انتهاء بنيانه زهاء ٨٠٠ . فهو من اهم سجون البلاد وجدير بان نتخذه قاعدة للكلام . مقامه فسحة واسعة واقعة بين غاب الصنوبر والبحر ، جنوبي بيروت ، على مسافة ثلاثة ارباع الساعة للماشي اليها من ساحة البرج . هذه الفسحة مسورة بجدار عالٍ وفيها البنايات مهندسة على شكل الاصابع في الكف ؛ والبناية المختصة بالادارة والموظفين هي بمنزلة الراحة من تلك اليد . يؤتى بالمعتقل الى السجن فيُفتح امامه اولاً الباب الخارجي في الوجهة الشمالية وعليه جندي حامل بندقيته وبها حربتها . على باب الادارة يفحصون عن هوية المعتقل ويعينون له مقاماً . بنايات السجون اربع ، اضيقهن مختصة بالنساء وملاصقة لبناية الموظفين شرقاً ؛ فيها ثلاث غرف ، غرفتان مساحتها زهاء عشرة امتار طولاً وعشرة عرضاً ، وهما على جانبي الغرفة الصغرى المتوسطة حيث مقام السجّانة . والغرف لها ابواب على دهليز طوله زهاء العشرين متراً ، وعرضه زهاء الاربعة . وفيه المراحيض وحنفيات الماء ومغسل الثياب .

ويلي سجن النساء بناية اخرى قُسم جانبها الشمالي ليكون مستشفىً للمرضى ؛ فيها مطبخ صغير ، ويلاصقه غرفة المرض وحانوت العقاقير . اما قسم البناية الجنوبي فهو عبارة عن دهليز ضيق مستطيل ، ضربت على جانبه غرف المجرمين الكبار .

ومن ثمّ بناية فيها دهليز طوله خمسون مترًا وعرضه متران ، في صدره باب يفتح على ممشى مساحته زهاء المئتي متر مربع ، وهو مسقوف ، تحدق به قضبان الحديد ، ويقف من وراءها في الخارج جندي ببندقيته وحربتها . والبناية الرابعة شبيهة بهذه ، ولكن ليس فيها ممشى ، وفيها قاووق للاحداث صغير . وفي البنايتين الكبيرتين يوزع السجناء في قاعات كبيرات ، او في غرف منفردة ، طبقاً لمقتضى احوال المعتقلين . والغرفة المنفردة ، او « الزندان » ، يحجر فيها على المتهم الذي لم ينته المدعي العام من اتخاذ قراره ، وتمنع عنه مخالطة غيره ولكن اذا احتاج الى الخروج اخرجه السجان وردّه الى محله . وكل قاعة من القاعات الكبرى مُحكمة غلق الباب بقفل متين وفيها المراحيض والماء للغسيل وللشرب في زاوية من زواياها . وقد يتجنب ذوو اليسر من السجناء فرش فراشهم بالقرب من باب المراحيض . وان غزارة الماء المصبوب يذهب بالروائح الكريهة ولكنه يثقل الهواء بالرطوبة . وهذا الهواء اذا كثر عدد المحبوسين واغلقت النوافذ يغلظ ويضيّق الصدور . وقد يراعي الحراس في الغالب طبقة السجناء الاجتماعية فترى الفقراء في قاعة ، والموسرين في غيرها ، وهؤلاء يفترشون البسط ويستخدمون رجالاً من فقراء المعتقلين . ولا يجوز احد من قاعته الى غيرها . وسكان القاعات يقيمون ليل نهار في مقامهم مجتمعين ، ويتراوح عددهم بين العشرين والاربعين . وبينهم الرجل المأيوس والجاني المحبوس لاول وثاني وثالث مرة ، والموقف توقيفاً ، والمتهم ، والشاب ، والكهل المحبوس لشهرين ، ولخمس وعشرين سنة . وان عدوى الامراض النفسية تتفشى من عليل الى عليل ولكن هذا الخطر لم يُعبأ به وجلّ ما هو مطلوب من المعتقلين ان يركنوا الى السلامة في قفصهم الحديدي .

هذا في « الرمل » اما في بتدين فالسجن اشبه بالخان الكبير . وكذلك

سائر السجون الكبرى في حلب وفي دير الزور قديماً . وبعض السجون موقعها في اقبية السرايات او في طبقاتها السفلى كما في بعبدا وزحلة وبعلبك . اما حالة المسجونين فلا تكاد تتغير عما وصفناها في «الرمل» ، الا انهم في الغالب يتمتعون بفسحة مفتوحة على السماء . ذلك هو مقام سكناهم – اية هي حالتهم الادبية ؟

## دار « المنسيين »

قال ابن عبد القدوس في حبسه :

خرجنا من الدنيا ، ونحن من اهلها ، ولا نحن في الاموات فيها ، ولا الاحياء .
اذا جاءنا السجان يوماً لحاجة عجبنا وقلنا : جاء هذا من الدنيا .

ان في هذا الكلام بعض المغالاة ومع ذلك فهو صحيح في عدد وافر من السجناء . وما اكثر ما رأينا المساكين يتقدمون الينا ويقولون: ما من سبيل الى الصلة بيننا وبين الناس . نحن في السجن منذ اشهر ولا احد يسأل عنا . تقدم الي يوماً رجل في حالة رثة وقال : « اتهمتني امرأتي بذنب فالقوا الشبهة علي وطرحوني في السجن ، وانا فيه منذ ١٦ شهراً . » ثم أطلق سبيله ؛ فسألت عنه ؛ فقالوا : كان بريئاً . وسمعت شاباً يقول : « سرق جاري في بعلبك . فتعقبوا السارق فلم يجدوه . فدخلوا علي ، وكنت طريح الفراش مريضاً ، فساقوني الى السجن . ولي فيه ثلاثة اشهر ولا احد يسأل عني . » ولما سمعني التحدث اليه اغرورقت عيناه ولسان حاله يقول: « وقلنا جاء هذا من الدنيا »

ودخلت المستشفى ، فرأيت رجلاً مسلولاً ، فسألته عن سبب علته . فقال : « وضعوني في قبو معتم رطب ، مدة اسابيع ، فمرضت ولا احد يسأل عني وانا غريب اجنبي . » ثم قال : « على ان صفتي الاجنبية حالت دوني ودون عذابي . كان في جواري رجل ارمني حاولوا ان يضطروه بالقوة الى الاقرار ، فضربوه وصرعوه وداسوه بالارض . »

وقال آخر : « حرموني من الطعام ثماني واربعين ساعة ليحصلوا مني على زيادة اقرار ولكن لا اعرف اكثر مما قلت . ولا احد يأتي اليَّ فيسأل عني سوى السجان فانا في « الزندان » كالميت في القبر . »

وسار عند الاميركان مثل في السجون فقالوا : « السجن دار المنسيين . »

على ان هذه الدار تغلو كالقدر على الماء واذا ضاقت الصدور وبلغت الروح التراقي ، انفجرت قنبلة الارواح واحدثت الثورات والفتن.

في السنوات الاخيرة تآمر ست مئة سجين على حراسهم في الكولورادو ، في الولايات المتحدة ؛ فغلبوهم على امرهم ، واغتصبوا المفاتيح ، وضبطوا مرافق الحبس ، واقتتلوا قتالاً قلما سبق له مثيل في عهد السجون.

واضطرمت نيران الفتنة في سجن ليفنورث المركزي حيث كان ثلاثة آلاف من السجناء محشورين في بناية قد اعدت لالف وثماني مئة فقط . وينفق على معيشتهم ما كانوا يتقاضونه لمعيشة الف وثمانمئة فقط.

وان اميركا هي بلاد العجائب والغرائب ، وهي بسعة اراضيها وكثرة عدد سكانها ، عظيمة بخيراتها ، وعظيمة بشرورها ايضاً . اما بلادنا فدونها سعة وشراً . ومع ذلك فان وقوع الفتن غير نادر في تاريخ حبوسنا . اما الحوادث الافرادية فكثيرة ، ولا تنقضي الاشهر الّا وتنعي الصحافة سجيناً يهلك انتحاراً اما بشنقه ذاته او باحراقه نفسه ، او يموت حتف انفه بعد ان يكون طال نزاعه اياماً وشهوراً ، ولا احد يكترث لامره ، وحياة الكثيرين من المحبوسين في نزاع مستديم.

بحثوا في اميركا عقب الفتن التي ذكرناها عن اسباب وقوعها فكانت على ما يلي . ١ً : الملل الذي يعتري السجين من طول القيام في سجنه وعلى الخصوص ان كان في الخلوة ( او في الزندان ) ، ولا يُسمح له بالمخالطة ولا بالحديث مع انسان وهذا الملل دونه مرارة الموت . ٢ً : سوء معاملة الحراس الذين يستعملون الوسائل المادية لضرب المحابيس بالعصي وغيرها . ٣ً : تعنف الحراس وظلمهم المحابيس وسبهم وشتمهم لادنى هفوة يرتكبونها . ٤ً : ضيق المكان نسبة لعدد السكان . ٥ً : قلة العناية بالطعام ليكون شهياً مقبولاً واساسه في الولايات المتحدة نوع من انواع اللفت يسمونه بارسنيپس ( *parsnips* )

جرت الحوادث فاحدثت ضجةً وشغلت الصحافة فالتفت الناس اليها ، ثم حولوا نظرهم عنها . وعاد السكوت فضرب سرادقه على السجون وسكت السجناء في اميركة ؛ اما في بلادنا ، فلا يسمع صوتهم الا نادراً ، ولا يهتم

ان يمحي اثره مع الساعات والايام.

على ان بنايات السجون لا تزال شاهداً عياناً لما يقع فيها من العقوبات القاسية.

وقفت على باب احد السجون في المنطقة الشمالية، وقد اذن لي الحاكم بالدخول. فامتنع المأمور وكان منتظراً البخشيش. فكرر الحاكم الامر. فدخلت فاذا فنا. لا تزيد مساحته على اربعمائة متر مكعب، يغص بزهاء ثلثمئة رجل. ونظرت فاذا حنفية ماء الشرب تجري بالقرب من المراحيض. واما هذه فجورة مكشوفة على الدوام. وبالقرب منها قبو فيه غرف لا يشرف عليها نور الشمس ابداً. دخلتها فاذا مساحتها بضع امتار مكعبة، لا بلاط فيها ولا حصير. يفترش صاحبها الحضيض فراشاً فيقاسي برد الشتاء وحر الصيف والعفونة، وروائح المراحيض الكريهة المنبعثة ابداً.

اما في بيروت فعدد وافر من السجناء لا يبصرون نور الشمس الا من خلال شبكات ضيقة، تصفي عليهم الضياء ضئيلاً. قال لي السجان يوماً «اقتصصنا منهم لانهم ضجوا ليلاً خلافاً للقانون القائل بالسكوت عند الساعة التاسعة مساء.» فنظرت فاذا هم زهاء الخمسين مكتظين في قاعة لا محل فيها لاكثر من الخمسة والعشرين. فقلت: «لا عجب من ان يقلقوا ويضجوا ونحن في آب اللهاب!»

— ولكن حلت فيهم العقوبات وعلى ضجيجهم، حُكم عليهم الا يبارحوا القاووق مدة ٤٨ ساعة. اي انهم حرموا من الانتزاه في دهليز الحبس المظلم وطوله ثلاثون متراً وعرضه المتران!

فلا عجب اذن ان تبدو على وجوه بعضهم ملامح اليأس وامارات الحزن والقنوط. افلا يكفي هؤلاء المساكين ابتعادهم عن آلهم وبنيهم واخوانهم وفقدانهم الاموال في الدعاوي وحرمانهم كل ما هو عنوان الراحة المادية والمعنوية؟ وما بالنا تزيد في طينهم بلة، وعلى نارهم جمرة: فضرب وشتم وتنكيل...

تقدم الي احد السجناء، وهو مكبل بالسلاسل ليل نهار فذكرني باخبار العصور المظلمة وبايام الاتراك.

## العين بالعين والسن بالسن

وكأني بمعارض يقول: قد تحدث اليك الناس بذلك المجرم المكبل بالسلاسل ليل نهار ، وعلمت منهم انه قتل اثنين من الناس ، ولم ينج من عقوبة الاعدام الا لكونه قتل عن غير تعمد ، وامثاله كثيرون .. أعلى هؤلاء الحسرات ؟ اتنسى قول الجاحظ : من « قابل الاساءة بالاحسان فقد خالف الله في تدبيره.» اقرأ ما جاء في نهاية الارب للنويري (٦:٦٥) :

ومن الناس من يرجّح عقوبة المذنب على ذنبه ومقابلة المسيء بما يستحقه من نكاله وضربه ورأى ان العفو عن المجرم موجب لتكراره والاحسان الى المسيء مقتضٍ لاصراره ؛ وقال : ان طباع اللؤم التي حملته على ذلك لا ترتدع بالاحسان ، ومرارة الذنب التي استحلاها لا تغيرها حلاوة الغفران . واخذ في ذلك بالكتاب والحديث ، وقابل على الذنب القديم بالعذاب الحديث وجاء في القرآن : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ؛ وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عاقبتم به» وقد امر نبي المسلمين بقتل ابي عزة وصلب عُقبة بن ابي معيط يوم بدر الى شجرة فقال : يا رسول الله انا من بني قريش ! قال نعم . قال فمن للصبية ؟ قال النار . وكان النضر بن الحارث شديد العداوة للنبي فأخذ اسيرًا يوم بدر فامر بقتله فقتل صبرًا بيد علي بن ابي طالب .

وقال علي : الشر بالشر ، وقال : رد الحجر من حيث جاءك ، وقال :

ولي فرس للخير بالخير ملجمٌ ... ولي فرس للشر بالشر مسرج

ومن اقوال العرب في مثل ذلك كثير ومنه :

اذا المرء اولاك الهوان فأوله ... هوانًا وان كانت قريبًا اواصره
وان كنت لم تقدر على ان تهينه ... فدعه الى اليوم الذي انت قادره
وقارب اذا ما لم تكن لك حيلة ... وصمّم اذا ايقنت انك عاقره

وليست اقوال العرب في الانتقام والعقوبة الا ترداد ما جاء في شريعة موسى الكليم : « العين بالعين ، والسن بالسن » . وان هؤلاء السجناء لم يصلوا الى حالتهم التعيسة الا بارتكابهم المحرمات ومطاوعتهم النفس الامّارة بالسوء ، وفيهم الكذاب والمنافق والسارق والقاتل والفاسق . فمن العدل ان يحتملوا تبعات سيئاتهم ويجازوا عليها بالقصاصات الصارمة . فلا لوم على الحكومة اذا نكلت بهم وجعلتهم عبرة لمن اعتبر . وان وضع القصاص في محله واجب لازب ، لولاه لقويت شوكة الجرائم واضطرب حبل الامن وتضعضعت اركان

النظام العام . والقوة في الحكام فضيلة . وجاء في الانجيل الطاهر : «من اخذ بالسيف ، بالسيف يؤخذ.»

على هذا الاعتراض اجاوب واقول : لا بد من مقاصة المجرمين تعويضاً عن امتهان الشرائع ، وترهيباً للناس . ولكن العدل يقضي بالتناسب بين الجريمة والقصاص . وقد تتذرع الحكومة بذلك العدل لتقضي على القتلة بالاعدام ولا لوم عليها . اما في دون ذلك من الجرائم فلا بد من مراعاة كل ظرف من الظروف والنظر ليس فقط الى الجريمة ولكن الى حالة المجرم عند ارتكابه الذنب لعل العوامل التي دفعته اليه تخفف من ثقل تبعتها عليه او تزيلها.

فيقول المعارض ان القانون يعتبر الظروف المخففة ويراعي حقوقها في تصدير الحكم واعلان الجزاء . اما اذا تم الحكم وقضي في الامر ، فما على السجان الا تنفيذ الحكم فحسب.

اقول : لا ، لا يكفي الحكام ان يزجوا المجرمين في السجون ويتركوهم وشأنهم . ان الفكرة القديمة في طبيعة السجون اخذت تتطور وتتغير منذ اشرق على العالم نور الانجيل ودوى صوت المسيح في الخافقين داعياً الى الرفق بالبائسين : «كنت سجيناً واتيتم اليّ» .تحركت اواصر الرحمة وتمخضت بالحنان وارسلت الى ظلمات السجون نور الشفقة والاغاثة ، فدخلها القديسون يفتدون الاسرى ويفكون اغلال المقيدين . وقال احمد شوقي :

ولد الرفق يوم مولد عيسى والمروآت والهدى والحياء
لا وعيد ، لا صولة ، لا انتقام لا حسام لا غزوة لا دماء

وانبعثت روح الشفقة المسيحية في الامم المتمدنة وغت واحدثت انقلاباً في علم الاشتراع الجنائي ساعد عليه حديثاً تقدم العلوم الطبية والفلسفية . وتغيرت آراء القضاة في حقيقة الجرائم وعللها ، وادى البحث والتعمق في الامر الى النظر الى المجرم السجين نظر الطبيب الى المريض والى السجون لا كانها مقام القصاص فقط او قفص محكم المرافق يكفينا ان نطرح فيه السجناء ونضرب صفحاً ذكرهم ولكن كما يجب ان تكون : مستشفى للنفوس العليلة ومدرسة للمتأدبين كما سترى.

(للمقال صلة)

مجلة المجلات

احمد تيمور باشا —
ظهور الجمل في شمالي افريقية

## احمد تيمور باشا

احتجبت مجلة الزهراء سنة كاملة ، ثم ظهرت مؤخراً وضمت بنشرة واحدة الجزءين السابع والثامن الى مجلدها الخامس . فرحباً بالزميلة وها اننا نأخذ منها باختصار (ص ٥٥٦) ترجمة فقيد العربية احمد تيمور باشا ، رحمه الله.

اصل الاسرة التيمورية من بلاد الكرد ، منبت صلاح الدين الايوبي. اول من وفد منها الى مصر تيمور كاشف من رجال دولة محمد علي ، وابنه محمد تيمور وحفيده اسماعيل والد المترجم له.

ولد احمد تيمور في القاهرة سنة ١٢٨٨هـ (١٨٧١م.) تلقن مبادئ العربية والافرنسية والتركية وشيئاً من الفارسية في داره ، ثم دخل مدرسة مارسيل الافرنسية ودرس على الشيخ حسن الطويل († ١٣١٧ = ١٨٩٩) والشيخ رضوان محمد المخللاتي . واتصل بالصداقة بمحمود باشا البارودي ، واسماعيل صبري باشا ، والشيخ محمد عبده ، والعلامة الشنقيطي († ١٣٢٢ = ١٩٠٤) وطاهر الجزائري. فقد زوجه وهو شاب فآلى على نفسه ان لا يرزأ اولاده بعد امهم بمن لا يجدون عندها مثل عطف امهم التي كانت من افضل النساء واكملهن حسناً وتهذيباً . وفي الثانية والثلاثين من عمره فقد اخته السيدة عائشة تيمور الشاعرة ، ووالدته ، وكان ذلك في شهر واحد . فزهد في الدنيا واباطيلها وانقطع الى العلم والتدين ، وسعى في سبيل اصلاح احوال المسلمين.

فكان يرى الخطر الاعظم عليهم آتياً منهم ، اي بجمود المشايخ وعجزهم من اخذ دفة السفينة بايديهم.

وله مؤلفات عدة كلها مخطوطة ، الا بعض المقالات نشرها في المجلات العربية ، واليك عناوين اهم مؤلفاته:

معجم اللغة العربية – اعيان القرن الثالث عشر والرابع عشر – تراجم المهندسين العرب – ذيل طبقات الاطباء – التصوير عند العرب – مفتاح الخزانة – نقد القسم التاريخي من دائرة معارف فريد وجدي – حياة ابي العلاء المعري وعقيدته – الحلقة المفقودة من تاريخ مصر – لعب العرب – البرقيات – الآثار النبوية – فهرس مكتبته – معجم الفوائد.

واليك ما طبع من مؤلفاته :

نظرة تاريخية في حدوث انتشار المذاهب الاربعة – قبر الامام السيوطي – اليزيدية ومنشأ نحلتهم – تاريخ العلم العثماني – تصحيح القاموس المحيط – تصحيح لسان العرب.

وقد يخلد ذكر تيمور باشا على الخصوص مكتبته وفيها نحو ثلاثة عشر الف كتاب نصفها مخطوط او مصور بالفوطوغراف ، ونصفها مطبوع.

## ظهور الجمل في شمالي افريقية

الجمل سفينة الصحراء ، حامل الاحمال وقاطع المراحل الطوال ، بحث الاثريون على اصله في بلاد افريقية الشمالية ، وراجعم امر عدم وجود آثاره في وادي النيل الا من عهد غير عريق في القدم . فذهب بعضهم الى القول ان الجمل لم ينشأ في افريقية ، بل هو هدية اهدته آسية الى شقيقتها عن طريق بلاد سيناء ، لما اجتازها كامبيس ملك الفرس ، وحمل على مصر وفتحها سنة ٥٢٥ قبل المسيح . وتناول الدكتور اوهدن هذا الرأي وامعن فيه النظر وعلق عليه تاملات وفوائد في مجموعة بترمن الجغرافية الالمانية ( ١٩٢٩ : ٣٠٧ ) ومقاله جدير بلفت الانظار لانه يكشف لنا عن الجهود الفائقة التي يبذلها المستشرقون في البحث على دقائق الامور التي يتوقف على معرفتها مصادر تاريخنا القديم ويرينا اسلوب المناقشة العلمية في موضعه قال :

اذا ما نظرنا الى حركة النقل والتجارة في مصر قبل الفتح الفارسي ، والى ما بلغنا عن معرفة المصريين احوال البلاد ، لا يسعنا الا ان نشك بصدق

القائلين ان الجمل لم يكن معروفاً قبل القرن السادس ق. م. ولا بد ان يكون المصريون قد انتبهوا الى الخدمات التي يؤديها هذا الحيوان فضلاً عن انه لدينا من الآثار الدالة على انهم قد عرفوا الجمل.

وروى صاحب المقال تلك الادلة عن المؤلف شوينفورث وهذه هي :

١) عثروا في وادي ابي عجاج بالقرب من اصوان على تمثال جمل مع صاحبه وعليه كتابة منقوشة يرقى عهدها ، على رأي «مولر» ، الى السلالة السادسة ( ٢٤٢٠ — ٢٢٧٠ ق. م. ) وفيها شهادة صريحة على ان حركة التجارة كانت رائجة مع بونت.

٢) تمثال جمال من وادي حمامات يرقى عهده الى السلالة الحادية عشرة ( ٢١٠٠ — ٢٠٠٠ ق. م.) على رأي غولنيشف ، وهو من البلاد الممتدة بين مقاطعة ثنية والبحر الاحمر على الطريق التجارية القديمة.

٣) اكتشف مولر في قبر يرقى عهده الى السلالة الاولى (نحو ٣٠٠٠ ق.م.) بالقرب من ابو صير الملك على اناء كلسي يمثل ابلاً باركة.

٤) رأس جمل من حجر اكتشفه فيلندر بتري في مقلع الحجارة بالقرب من ابيدوس.

٥) لوح من العاج قديم جداً ابتاعه شيابارلي في الاقصر وعليه صورة انسان يقود جملاً.

وانه من الممكن ان تكون القطع الثلاث الاخيرة قد نقلت الى مقرها من غير بلاد. وفعلاً ، لقد ثبت ذلك في ما خصَّ اناء ابو صد. على ان التماثيل المنقوشة في الصخور تؤدي البراهين الكافية على وجود الجمل قديماً في مصر. وقد ثبت وجوده ايضاً في غير ذلك من الامكنة ولكن من غير تاريخ.

وفي البلاد الواقعة على الحدود بين مصر والسودان ، عثر لينان دي بلفون ، شرقي عتبي في وادي ميسا ، على آثار جمال وبقر ؛ وفي وادي بيضاء على صور جمال مشوهة وخيل للركوب وكتابات غير هيروغليفية ؛ وفي وادي مرة في بادية النوبة ، على منتصف الطريق بين كوروسكو وابي حامد وُجدت تصاوير منقوشة في الصخور ، راق عهدها الى زمان غير حديث ، وعليها رسوم

خيل وجمال وغير ذلك ، ذكرها لبسيوس وقال فيها انها ليست من نوادر المكتشفات في بلاد النوبة.

اما الكتابة العربية التي وُجدت ، ثم مُحيت ، فقد عثر عليها نتتيغال بالقرب من ام مشانة في دارفور وعليها تصاوير الخيل والنعامات والابل . فهي حديثة العهد. وجديرة بلفت النظر اقوال نتتيغال في الرسوم الصخرية الواقعة في داخل بلاد التبستي في مسافة ثلاثة ايام عن تاوو لانها تناقض رأي هنري بارت. تلك الرسوم مثلت بصورة خشنة غير متقنة جملاً وثيراناً من غير جنس البهائم الموجودة في السودان ، وهي للنقل والحمل . واخيرًا نقول ان رسوم الجمل غير قليلة في الصخور الصوانية التي اكتشفها حسنين بك في واحة العوينات سنة ١٩٢٣ ، وان نيوبولد وجد تماثيل مئات من الجمال وغيرها من الحيوانات في ابي سفيان شمالي القرضبان الغربي . لكن عهدها لا يرقى الى ابعد من ١٥٠٠ او الفي سنة على ما يظهر.

وان هذه الادلة العديدة لا تلمّ بسائر ما يمكن كشفه في هذا الصدد ومع ذلك فهي برهان واضح على ان الجمل كان موجودًا منذ القدم في مصر وجنوبها وجنوبها الغربي.

ومما يستحق الذكر بعض رسوم عليها صور الجمال والبقر وهي موجودة في نقط متنائية بعضها عن بعض . ولما كان ظهورها غير منفرد بنوعه ، فلا سبيل الى اتباع رأي هان في قوله ان تمثال اصوان الصخري نحته احد المسافرين الآتين من الساحل الشرقي للبحر الاحمر . وقد علل كرس عدم وجود الجمل في البلاد العامرة في الزمان القديم تعليلاً مقبولاً . فانه افترض ان الجمل كان نجساً عند المصريين لما كان بينهم وبين القبائل البدوية من النفور ، فضلاً عن ان جنسه ينحط واثره يبيد في الاراضي الرطبة المكونة من رواسب المياه . فمن المعقول ان يكون الجمل قد ظلّ حتى ايام الفتح الفارسي مختصاً بالقبائل الحامية وحدها فقط ، وهذه القبائل كانت معادية لسكان مناطق وادي النيل الواقعة غرباً بشرق انطيو القديم او بلماير.

على ان هناك مشكلاً لم يُنظر اليه بعد وهو : كيف كانوا يقطعون

المسافات قديماً بين مصر والواحات الليبية التي خضعت منذ السلالة الثانية عشرة للحكم المصري ، بعد حملة مصر على ليبية.

قال بورخاردت : انهم كانوا يستخدمون الحيوانات لحمل الاحمال او جر المركبات ويسقونها من موارد الصحراء ، ومياهها موفرة لديهم اما بمناهلها واما بطرائق اصطناعية . ثم مضى الزمان وأُهمل شأنها فباد اثرها . وهذا الرأي مقبول لانه منذ تناقش العلماء في شأن الآبار الارتوازية اقروا بامكان وجود ينابيع في اعماق الرمال. وقد يصح كلامهم في البلاد الواقعة على طريق القافلات القديمة بين الشرق والغرب من دقل الى كفره.

ويروقنا تذييل المقال بالابيات التالية اخذاً عن مجلة البادية (١٩٣٠ : ص ٤٨٦) وهي لقسطنطين يني ، من قصيدة لطيفة عنوانها « الجمل والطفل والحوض » ، نظمها في اليمن ، يوم كان في صنعاء ضيف الامام يحيى حميد الدين . وهي تظهر الطريقة التي لا تزال متبعة حتى اليوم في سحب المياه من الآبار ، ولعلها موروثة عن الجدود الذين كانوا يقطعون المراحل في ايام العصور الخوالي . ثم تطوّر الزمان وارتقى العالم وهي لا تزال كما كانت . . .

ايها الطفل المغني للجمل ... خدعة منك لكي يملي القلل ،
هو يدري أنَّ من واجبه ، ... طيلة الايام ، انجاز العمل :
يُخرج الماء من البئر لكي ... يملأ الحوض ، بلا ادنى ملل ،
يتهادى سائرًا مندفعاً ، ... كاندفاع النحل في جني العسل ،
آملاً ان ينزح الماء من البئر ؛ لكن خيب البئر الامل :
كلما افرغ منه جانباً ، ... عاد مملوءاً مياهاً بالعجل .
حيّر الماءُ نهاه ، جاهلاً ... انه يأتيه من سفح الجبل .
كلما في سيره جدّ ، رأى ... حبله من خلفه يقفو المثل .
واذا كلّ من السير ، تلا ... الطفلُ انشاداً ينسيه الكلل .
هكذا عقل صغير قائدٌ ... لكبير ضخم جسمٍ ما عقل .
انما لو انصفوه ، عرفوا ... انهم ، لولاه ، ما نالوا وشل .

ف . ت .

# شذرات

## جحيم المشاة

نشرنا في العدد الفائت من المشرق (ص ٧٠٢) عدد القتلى والجرحى الذين يذهبون ضحايا السيارات كل سنة في انحاء اميركة. ثم اطلعنا في «مجلة العالمَين» الفرنسوية (عدد ١٥ تموز ١٩٣٠) على بعض الشروح لهذه الحوادث المؤسفة وذلك في مقالة واسعة عن «الجيل الحاضر في الولايات المتحدة»، قال فيها الكاتب (ص ٣٤٤):

«اصبح تعدّد السيارات وباء ذا خطر شديد على الشبيبة الاميركية. واسباب ذلك عديدة منها تغفّل الوالدين الذين يتركون سيّاراتهم، دون اهتمام، بين ايدي اولادهم؛ ورخص هذه السيارات المتزايد يوماً عن يوم؛ وعدد العربات المباعة بطريق الحراج بثمن بخس؛ والسهولة في اعطاء شهادة السوق لمن تجاوز الخامسة عشرة من سنيه، في بعض الولايات. كل هذه الامور وضعت في ايدي الشبيبة آلةً قتّالة صارت خطراً عاماً.»

ثم يقول الكاتب في الصفحة نفسها: «ان الولايات المتحدة غنية. على ان هذا الغنى يظهر خصوصاً بغلاء المعيشة، وعليه ينبغي للانسان كثير من المال حتى يعيش عيشة بسيطة.» ونحن نزيد ان هذه الخواطر موقعة بامضاء اميركي فخور ببلاده. _

## انتشار السينما

ظهرت الصور المشبَّحة على لوحات المسارح لاول مرة في ٢٨ كانون الاول سنة ١٨٩٥. اما اليوم، بعد مرور ٣٥ سنة، فيبلغ رأس المال المستعمل في الصناعة السينمائية نحو ٤ مليارات من الدولارات. تستهلك الولايات المتحدة منها نحو النصف، فتأتي صناعة السينما فيها في الدرجة الثالثة، بعد صناعة المقدّدات،

وصناعة السيارات . اما فرنسة فتخصّ بهذه الصناعة نحو مليارَي فرنك ، وبريطانية العظمى ٧٠ مليون ليرة ، واليابان ما يُعادل ٣٠٠ مليون من الفرنكات الذهبية . وفي المانية شركة عظيمة للسينما يعادل رأس مالها ، وحدها ، ٤٥ مليون مارك .

وفي العالم اليوم اكثر من ٦٠,٠٠٠ ردهة لعرض الصور السينمائية منها نحو ٢٥,٠٠٠ في الولايات المتحدة ، واكثر من ٥,٠٠٠ في المانية ، و ٤,٠٠٠ في انكلترة ، ونحو ٤,٥٠٠ في فرنسة ، و ٢,١٠٠ في ايطالية ، و ٢,٥٠٠ في اسبانية . وفي ردهات الولايات المتحدة ثمانية ملايين محلّ ، يمرّ فيها كل اسبوع نحو ١٠٠ مليون من المتفرّجين .

اما محصولات الصناعة السينمائية ، سنة ١٩٢٧ ، فبلغت ١٨٦٩ فِلماً ، او شريطاً ، منها ٧٤٣ أُخرجت في الولايات المتحدة ، و ٤٠٧ في اليابان ، و٢٧٨ في المانية ، و١٠٦ في انكلترة ، و٧٤ في فرنسة ، و٥٧ في الصين ...

وغنيّ عن البيان ان هذه الاعمال تتطلّب عدداً كبيراً من العملة والمستخدمين فضلًا عن الممثلين ومن شاكلهم . وفي الولايات المتحدة وحدها ٢٢٥,٠٠٠ عامل ، و ٣٠,٠٠٠ ممثّل من الاشخاص الثنويين ، وعدّة آلاف من الممثلين الفنيين يرتزقون جميعهم من السينما . وفي المانية شركة مهمّة تشغل وحدها ٤,٠٠٠ عامل . ويقدّر مجمل المشتغلين بالسينما في فرنسة بنحو ٤,٠٠٠ ممثل ثنوي ، يُضاف اليهم نحو الفي فنّان . وفي انكلترة ٧٠,٠٠٠ شخص يعيشون بفضل صناعة السينما .

## من المسرح الى الدير

جاء في الاخبار الاخيرة ان الممثلة الفرنسية الشهيرة ايفون هوتن ، احدى كواكب « الكومدي فرانسيز » والتي لم تبلغ الثلاثين من عمرها ، قررت هجر العالم والاعتزال في دير ، لقضاء ما بقي من حياتها في اعمال البرّ والتقوى .

# مطبوعات شرقية جديدة

**Maisler (B):** Untersuchungen zur alten Geschichte u. Ethnographie Syriens u. Palästinas. [*Arbeiten aus dem Orient. Seminar der Univers. Giessen, Heft* 2]. *VI*-82 *pp.*, 8°. 1930, *Töpelmann, Giessen.*

ابحاث في التاريخ القديم ، ودرس السُلالات ، في سورية وفلسطين

هو كتاب جديد (بل جزء اول من كتاب جديد) يختصّ بموضوع قسّم مؤرخي الشرق وعلماء سُلالاته البشرية الى قسمين متباينين . فبينا نرى العالم الاميركي كلَي (Clay) يبرهن ان الأموريين (اطلب سفر العدد ٢١:٢١ . . . ، وتثنية الاشتراع ٢ : ٢٦ ؛ وسفر القضاة ١١ : ١٩ . . . ) كانوا يحتلّون سورية بكاملها وجميع فلسطين فضلاً عن انتشارهم في بلاد بابل ، منذ عهد سلالة حمورابي ، نرى مذهباً جديداً ، هو مذهب العالم الاشوري لاندسبرغر (Landsberger) ، يقول بنظرية جديدة ينشرها ويتوسّع فيها تيوفيل باوِر (Bauer) تلميذ لاندسبرغر المذكور . ومفاد هذه النظرية ان الاموريين كانوا من اقدم العصور مقيمين في بلاد بابل ، وانهم متميّزون عن الذين احتلّوا ، بعد ذلك ، سورية الشمالية والمتوسطة .

اما السيد ميسلر ، في كتابه الحاضر ، فانه يعود الى النظرية الاولى فيجعل مقام الأموريين في مناطق سورية الشمالية وما بين النهرين ، ثم يحدرهم شيئاً فشيئاً نحو الجنوب . والمؤلف يهتم بتأليف واسع يدرس فيه السُلالات البشرية في سورية وفلسطين منذ اول عهدها حتى الالف الاول ق.م. ولكنه يكتفي ، في هذا القسم الاول ، بدرس السُلالات غير العبرية اي الاموريين ، والحُرّيين ، والكنعانيين ، والحثيين ، وعلاقاتهم بعضهم مع بعض ؛ مدقّقاً في درس نصوص التوراة ، مرسلاً شيئاً من النور على جميع الموضوعات الصعبة التي يخوض فيها . هذا ولا يمكننا ان نتبعه في تفاصيله كلها ، بل نكتفي بما تقدّم ، منتظرين نهاية تأليفه حتى نبدي حكماً عاماً في ذلك .

**J. Sauvaget : Deux sanctuaires chiites d'Alep.** [ *Extrait de la revue Syria*. 1928 ]. *Paris, Geuthner. Prix* : 20 f

معبدان شيعيان في حلب

هو درس دقيق خصّه المؤلف بمعبدين شيعيين على اسم الحسين ومحسّن من حفدة النبي يُظهر اهمية الشيعة في حلب منذ عهد سيف الدولة . والمؤلف يهتم خصوصاً بالجهة الاثرية ونوع هندسة البناء ، مقابلاً بين المعبدين المذكورين وآثار الايوبيين والمماليك ، في ابحاث توليه الفضل الجزيل. ه. ل.

**Marica Monte Santo : L'Isola dei Gigli ( Stampalia. )** [ *Collezione di opere e di monografie a cura del ministero delle Colonie. n° 7* ] *Sindacato italiano arti grafiche editore in Roma.*

ستامپاليا ، جزيرة الزنابق

عنوان لطيف جذّاب لكتاب جميل المظهر يُقسم الى قسمين : يبتدئ الاول بلمحة في تاريخ الجزيرة ، ثم يوصف عادات سكانها وصفاً يقف فيه المؤلف طويلاً عند الزيّ النسائي ويعزّز اقواله بالصور والرسوم العديدة المتقنة . اما القسم الثاني فيجمع كثيرًا من الاغاني الشعبية . وقبل القسمين مقدّمة طويلة يجتهد فيها المؤلف ان يظهر النفوذ المثلّث الذي أثّر في عادات سكان الجزيرة ، والذي يتراءى للباحث حتى ايامنا هذه . فيعتبر ان من يلاحظ الثياب المتقنة المُثقلة بانواع الزخارف والتطريز التي ترتديها النساء ، يلمس في ذلك تأثير الترف البيزنطي ؛ كما ان من يقف على الاحتفالات الطويلة المعقّدة التي لا تزال ترافق الزواج والدفن ، يشعر بأثر متأخر من آثار العصور الوثنية ؛ وكذلك لا يمكن الباحث الا ان يتحقّق جمال عادات البندقية وحكمة سكانها عندما يطرق سمعه الشعر الفطري الغفل الذي يتغنى به اهالي تلك الجزيرة . ويلي ذلك مدح طويل لمدينة البندقية الجميلة . فيمكن المطالع ، والحالة هذه ، ان يستنتج ما لا يصرّح به المؤلف ولكنه ظاهر من خلال اقواله ، من ان ستامپاليا ، والجزر التي حولها ، لا يمكن ان تنفصل عن الشعب الذي يحفظ تقليد جمهورية البندقية.

الاب كساناكيس

**Chr. Henn. Vosen et Fr. Kaulen :** Rudimenta linguae hebraicae scholis publicis et domesticae disciplinae brevissime accommodata. *Editio undecima, in-8° XII et 172 pp.)* *Prix* : 2 *M.*, 50 *relié toile* : 3 *M.*, 50. *Herder Freiburg, sans date* ( 1930 ).

مبادئ اللغة العبرية

تدلّ هذه الطبعة الجديدة على رواج مؤلَّف مدرسي جزيل الفائدة للمبتدئين في درس اللغة العبرية . فبينا نتمنى له دوام هذا الرواج ، نأسف اذ نرى ان الطبعة الحاضرة ، فضلاً عن كونها غير متقنة الطبع ، لا تميّز الكتاب في شيء عما كان عليه سنة ١٩١٠ ، في طبعته التاسعة. مع ان دروس الألسنية عامة ، واللغة العبرية خاصة ، تقدمت تقدماً محسوساً منذ ذاك العهد . حتى انه اصبح من الواجب على اصحاب الكتب في الموضوع ، حتى الابتدائية منها ، ان يستفيدوا من ذاك التقدم . وهو ما نؤمله الكتاب الحاضر في طبعة جديدة قريبة ان شاء الله. ب. موترد

**J.-B. Thibaut A. A. :** L'Ancienne Liturgie gallicane: *vol.* 25 × 17 *de* 120 *pp. Prix : 5 f*s. *Bonne Presse, Paris.*

الليتورجية الغاليكانية القديمة

اهتم حضرة الاب تيبو بدرس المشكل الخاثم حول اصل الليتورجية الغاليكانية القديمة التي ظهرت في غالية ، على عهد كلوفيس ، بسرعة تعادل سرعة اضمحلالها في منتصف القرن الثامن ، دون ان تترك شيئاً مهماً من آثارها في فرنسة . وكان مما يعقّد حلّ المشكل تلك الصفة الشرقية السائدة في الليتورجية المذكورة . اما اليوم فتبددت الغوامض واصبح ذاك الاصل واضحاً بفضل مؤلف الاب العالم الذي استقبله جميع الاختصاصيين بما يستحق من الثناء.

**M. Sabry :** L'empire égyptien sous Mohamed Ali et la question d'Orient. 605 *pp. gr.in-8°*. 1930. *Paris, Geuthner. Prix* : 75 *f*s.

المملكة المصرية على عهد محمد علي والمعضلة الشرقية

شاهد مؤلف الكتاب ، وهو استاذ في دار المعلمين العليا في القاهرة ،

كثرة ما كُتب ، في اوربة خصوصاً ، عن محمد علي والمعضلة الشرقية ، فرأى ان يُقابل ذلك بمؤلف شرقي في الموضوع ، وهو امر لم يقم به احد قبله . فكان كتابه مبتكراً جديداً من بعض جهاته . الّا ان هذه الجدّة قائمة باستعماله المستندات والمآخذ المحفوظة في السجلّات الاوربية ، اكثر منها باستناده الى المعلومات الشرقية . هذا وان في الكتاب ، نقصاً في المعلومات ، وعدم ضبط في التدقيق ، في ما خصّ بلادنا السورية ؛ من ذلك اسماء بعض الاماكن المحرّفة عن اصلها تحريفاً غريباً ككلمة « Cornile » ( ص ٣٦١ ) ، وهو يريد بها « قرنايل » ؛ وكذلك « Bait-Hannis ». ثم ان تأثير هذه المعركة في مصير بيروت مجهول تماماً . وكذلك قوله ، في الصفحة ٣٤٣ ، ان الموازنة من اصحاب البدع ، ليس على شيء من الصحة . وعليه نرى هذا الكتاب مفيداً بالمستندات التي يوردها ، اما احكامه واستنتاجاته فيجب الاخذ فيها بمقدار ، لأنها مفتقرة بالاجمال الى تدقيق وضبط . ج . ل .

**Santi Nava :** Il mandato francese in Siria dalle sue origini al 1929. *in-8° 269 pp.* 1930.[ *Collezione « Cedam » di studi coloniali. vol.* 1 ] *Padova. Casa editrice Dott-A. Milani.*

الانتداب الفرنسوي في سورية ' من اول عهده حتى سنة ١٩٢٩

كتاب حريّ بكل انتباه ، حسن التأليف ، كثير الوضوح ، مترفع عن الاميال الشخصية . فهو يظهر للقرّاء الايطاليين اثراً وافي المستندات ، صحيح الاستنتاجات ، وللقرّاء الفرنسويين رأي الاجانب في اعمالهم في سورية ، رأياً مصيباً عادلاً . ج . ل .

**Emile Faguet :** Histoire de la Poésie Française de la Renaissance au romantisme. *t. IV.* Jean de la Fontaine ( 1621 - 1695 ). *in-16, broché : 15 fs. Boivin et Cie, Paris.*

الجزء الرابع من تاريخ الشعر الفرنسوي : جان دي لافونتين

ان الثلاثة المجلدات الاولى التي ظهرت من هذا المؤلف الفريد في نوعه عرضت لنا تاريخ الشعر الفرنسوي من السنة ١٦٠٠ الى ١٦٦٠ ، وهي سنة الانتقال

من الحقبة البيانية التي تلت النهضة الى الحقبة المدرسية المعروفة غالباً بالنصف الثاني من القرن السابع عشر . وفي هذا المجلّد الرابع يُظهر لنا الاستاذ النقّاد الشهير كيف ان الآداب الفرنسوية منذ السنة ١٥٥٠ ، وخصوصاً آداب من عرفوا « بالثريّا » ، تتسق وتتطوّر حتى تصل الى اكمل مظهر لتامها وازدهارها في آثار لافونتين. ولا حاجة بنا الى حثّ الادباء على اقتناء هذا المؤلف النفيس .

**Reinstadler: Elementa philosophiae scolasticae. 2** *vol. in*-**12.** *Edit' decima tertia, brochés :* 9 *M. reliés*: 11, 40, *Herder et C^ie Freiburg im Breisgau.*

مبادئ الفلسفة الكلامية

لا شكّ في ان رواج هذا المؤلّف سببه ما تحلّى به من الصفات التعليمية ، كترتيب الموضوعات ، والخوض فيها بدقة ووضوح فضلاً عن سهولة لغته اللاتينية ، وكثرة النصوص الفرنسوية ، مما يرغّب الطلّاب في درسه اولاً ، وفي الرجوع اليه حتى بعد انتهاء دروسهم . ج. ل.

**René Maunier : Mélanges de sociologie nord-africaine. 221** *pp. in*-12 *Prix : 15 f'. Librairie Alcan, Paris.*

ابحاث عمرانية عن شمالي افريقية

عاش المؤلّف ، وهو استاذ في جامعة باريس ، مدة في الجزائر وفي مصر . فرأى ان يجمع في كتابه هذا ما لاحظه ودرسه من الشؤون العمرانية في ذينك القطرين ، فتكلم عن العمران العربي والبربري في ما خصّ الجزائر ، وعن مرافق الغنى ، واسباب الجرائم ، والانتحار ، في ما خصّ مصر . ج.ل.

**Chanoine Jules Tournier : La conquête religieuse de l'Algérie ( 1830 - 1845 ). 260** *pp, in*-12 *avec* 7 *gravures hors texte et une carte. Prix* : 16 *fs. Paris Plon,* 1930.

فتح الجزائر الديني

ان من يطالع مجموعة التذكار المئوي لافتتاح الجزائر يأسف اذ لا يرى فيها كتاباً خاصاً بالجهة الدينية . تلك ثلمة تبعد عن الروح العلمي العادل .

وقد اجتهد بسدّها مؤلف الكتاب الذي نصفه فروى تاريخ الفتح الديني ، الذي كان اصعب وادعى للفخر من الفتح السياسي ، خصوصاً لما صادفه من معاكسات مطّردة من قبل ادارة مدنية لا تفقه شيئاً من حاجات الشعوب الروحية . فأتى بتأليف لذيذ مفيد يبسط خاصة تاريخ اول اسقفية كاثوليكية في بلاد الجزائر. ج. ل.

Islamica, *vol. III, fasc.* 5 — *vol. IV,* 2. *Leipzig, Verlag der Asia Major.*

جزءان من مجلة « إسلاميكا »

هما جزءان جزيلا الفائدة لقرّائنا الكرام . يتضمّن الاول منهما ، في ٩٩ صفحة ، درساً مسهباً عن «ايام العرب» يشهد لكاتبه بالاطلاع الواسع والمعلومات الصحيحة . على اننا ، في ما خصّ الصفحة ٦٦ ، نرى رأي بروكلمن ونقول ان اكثر هذه الاحاديث متولّدة من الشعر القديم . اما الجزء الثاني فيحتوي على معلومات ثمينة عن الابحاث العربية التي ظهرت في روسية من سنة ١٩٢١ الى سنة ١٩٢٧ ؛ وعن الاسلام والتاريخ العربي ، والنقود الاسلامية . واننا نشير خاصة الى ابحاث السيد برتولد ه. ل.

Abel Dechêne S. J. : Le flambeau dans la maison. *in-12e*, 164 *pp. Paris, P. Lethielleux.*

السراج في البيت

يجمع هذا العنوان اللطيف صفحات نفيسة عن الفتاة ، فيبحث المؤلف في عقلها ، وارادتها ، وقلبها ، وطرق تنشئتها الادبية ، وتهذيبها الروحي حتى تصبح سراج البيت المنير ، الذي يذكره الانجيل الطاهر . كل ذلك بجملة رشيقة ، واسلوب جذّاب. ج. ل.

## الحركة الاشتراكية

بقلم رمزي ماكدونالد — ترجمة الاستاذ محمود حسني العرابي

عني بنشره الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية . ص ١٦٨ من القطع المثمن الكبير

لم تبلغ بلادنا الى مستوى المدنية الغربية ، ولم تتألم من المشاكل التي تولّدت

في الغرب من تضخم الثروة بين يدي البعض وقبضهم على مرافق الحياة الاجتماعية حتى ضاقت على ذوي الكدّ مذاهبهم ، فنهضوا برمّتهم يحاولون قلب النظام الاجتماعي السائد ، ويطلبون توزيع اموال الارض وخيراتها على غير ما هي اليوم في ايدي الناس. تلك ، على ما ارى ، خلاصة ما يسمونه الحركة الاشتراكية التي حاول المعرّب ان يعرضها في ترجمته . ما هي قيمة الكتاب في اصله ؟ — لا شكّ ان رمزي ماكدونالد ، رئيس الحكومة الانكليزية وزعيم الاشتراكية ، والمؤلف المعروف ، هو من يرى قوسه للنضال عن مباديه بعزم وارادة بلغت به الى مراقي النجاح . ولكن ليست نظراته في حلّ المشاكل الاجتماعية المتولّدة من الحركة الاشتراكية ما يُستطاع التوفيق بينها وبين المبادئ الكاثوليكية . وقد يزيد هذا الكتاب ابهاماً وتعقداً تعريبه عن اصل لم يتضح معناه للمعرّب فخاض الميدان « كساع الى الهيجاء بغير سلاح ». على انه اقبل على العمل بغيرة ونشاط . ف . ت .

## الغدر الذميم

تأليف الارشيمندريت برتلماوس صليبا

٧٢ صفحة متوسطة – بيروت ، ١٩٣٠

مأساة ذات ثلاثة فصول تظهر عاقبة الغدر الذميم ، وجمال الوفاء والامانة . وهي حسنة الوقائع ، متنوّعة المشاهد ، تستنتج منها النصائح الجمّة ، وذلك بجملة سهلة ، واسلوب لطيف .

## ثورة عواطف

بقلم نقولا حدّاد

١٥٠ صفحة متوسطة ، مصر ، ١٩٢٨

هي « رواية حب يعلّم الادب » ، على قول مؤلفها الذي صوّر فيها مشاهد متنوّعة ، وعواطف قوية ، باحثاً في « فلسفة الحب الشعري والهوى العذري » وغايته البرهان ان « التربية اولاً والسُلالة ثانياً منبت الشخصية » كما ان « الام هي من ربّت لا من ولدت. » فتوفق الى ذلك باسلوب قد يكون فيه تكلّف من حيث التشابيه وتناسق الصور ، ولكنه مقبول بالاجمال . هذا وقد نثق

الرواية تنسيقاً تمثيلياً ايضاً.

## الذخيرة الى المعاد

نظم سليمان ظاهر العاملي

مطبعة العرفان ، صيدا ، ١٣٤٨ (١٩٣٠) – ٢٦٥ صفحة صغيرة

هي مجموعة ١٨ قصيدة في مدح محمد وآله ، قدّم الناظم على كل منها معلومات تاريخية ودينية ضافية عن الذين يمدحهم . وقد بدأ الكتاب بثلاثة فصول خصّ الاول منها ببحث ديني اسلامي في الالوهية والايمان ، والثاني بمحمد ونبوّته واقوال البعض فيه ، ثم باحوال عرب الجاهلية من العلم والصناعة فالسياسة والادب والاجتماع . اما في الفصل الثالث فيبحث في الامامة بحثاً شيعياً يردفه بنشر القصائد التي اشرنا اليها . ويختم الكتاب بعدّة تقاريظ اتته من علماء الشيعة .

## كتاب تهذيب الاخلاق لابي زكرياء يحيى بن عدي

عني بنشره وتعليق حواشيه مراد فؤاد جقي

مطبعة دير مار مرقس للسريان بالقدس ١٩٣٠ (ص ٦٠ ، ق ٨)

طالعنا الكتاب فرأيناه مستوفياً حقوق النشر العلمي ، قدمه الناشر بديباجة وذكر طبعاته ، ووصف مخطوطاته ، وترجم لصاحبه ، وعرض لائحة مؤلفاته . واعتمد في طبعته هذه الجديدة على النسخة المحفوظة في المكتبة المرقسية بالقدس . وصور صفحته الاولى ليتسنى من ثم للقارئ ان يقابل بين النشرة واصلها . وكتاب تهذيب الاخلاق حقيق بان يوضع بين يدي تلامذة الفلسفة من طلّاب البكالورية. ف. ت.

* الاصطياف في لبنان * كرّاس ذو ٧٢ صفحة نُشر تذكاراً الحفلة التي اقيمت في مسرح حديقة الازبكية ، في القاهرة ، في ١٣ ايار ١٩٣٠ ، وغايتها نشر الدعاية للاصطياف في لبنان . وقد جُمع في الكراس كلمتان طيّبتان لخليل بك مطران والدكتور علي ابراهيم بك ، ومحاضرة قيّمة للطبيب العالم العامل الحكيم امين الجميّل عنوانها : « تغيير الهواء احسن دواء ! »

* حبوبة خاطر * بقلم ولدها لحد خاطر ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٣٠ –

هي ترجمة والـدة صديقنا المعاون في تحرير جريدة البشير يطلع فيهـا القارئ على مثال الام المسيحية والمرأة الفاضلة .

* برنامج الجمعية الخيرية للقديس منصور دي بول في دمشق ، عن سنة ١٩٢٩ * مطبعة القديس بولس في حريصا – تتفرع الجمعية الى تسعة فروع ، عدد اعضائها ٢٥١ ، وميزانيتها عن العام الماضي ٣٠٢٣٠ فرنكاً ذهبياً .

# اهم حوادث الشرق في شهر

## ١٥ تموز — ١٥ ايلول

لا داعي للتنويه بالاشاعات الكاذبة التي لفقتها بعض الصحف على فكرة تنازل البطريرك الماروني عن مقامه والتـاوم في الكرسي وفي امر الانتداب ، لولا انها دعت الى شد عرى الصداقة بين البطريرك والقـاصد وممثل السلطة المنتدبة بالزيارات والمراسلات التي جرت بينهم (١٠ ، ٢٧ تموز ، ٨ آب) . هي هبة ريح نثرت غباراً في اعين البعض ، ثم صفا الجو على تجول القاصد الرسولي في لبنان وتظاهر ابناء الكنيسة بطاعتهم الابوية لممثل الحبر الاعظم ، ولكن ناحية من نواحي شرقنـا العزيز لا تزال متلبدة بالغيوم ، والروم الارثوذكس يلتمسون قشع الظلام من بطاركة الاستانة واورشليم والارسكندرية والملاقات بينهم وبين تلك الكراسي انما هي قانونياً اوهى من سلك العنكبوت . واعرب بعض زعماء الارثوذكس عن فكرتهم باتخاذ بطريرك لهم خارجـاً عن طائفتهم ان لم يجدوا فيها من يكون كفوءاً للمقام . عسى ان تكون الفكرة وميض برق الاتحاد .

اصدر المجمع المقدس مراسيم بخصوص ذهاب الكهنة الشرقيين الى اميركة واقامتهم فيها لخدمـة النفوس او لجمع الحسنات ، وحدد واجباتهم وواجب السلطة المألوفة تجاههم وتجاه رومة .

اقيمت الرياضات الروحية الكهنوتية السنوية ، وصار امرهـا عادةً قلما شذت عنها ابرشية من الابرشيات الكاثوليكية .

## لبنان وسورية

| سكان الجمهورية اللبنانية | الحاضرون | المهاجرون |
|---|---|---|
| الموارنة | ٢١٤,٣١٣ | ٢٠٤٤٨ |
| السنيون | ١٣٦,٤٠٤ | ١٠٠٨ |
| الشيعيون | ١١٣,٥٣٦ | ١٨٣٩ |
| روم ارثوذكس | ٧٧,١٤٩ | ٩٩١٥ |
| روم كاثوليك | ٤٥,٠٠٥ | ٤١٧٧ |
| دروز | ٤٢,٣٠٧ | ٢٦٢٦ |
| البروتستانت | ٥,٤٢١ | ٤٣٩ |
| طوائف الاقليات | ١٠,٩٧٤ | ١٨٩ |

والمجموع العمومي هو ٨٦٢,٦١٨ ، مع اضافة عدد الاجانب.

توفرت موارد الارتزاق وسبل الراحة: هبطت اسعار المواد الغذائية ، وهجر كثيرون من الارمن في بيروت اكواخهم الخشبية لسكنى البنايات المعدة لهم في الاشرفية وفيها ٣٠٠ منزل ، وانتظم البريد الجوي الاسبوعي ذهاباً اياباً بين مرسيلية وبغداد عن طريق نابولي ، كورفو ، اثينة ، كاستلروسو ، بيروت ، دمشق ، بغداد . وباشرت الوزارة الداخلية النظر الى المواقع الواجب تحريجها وكيفية اشتراك الاهالي او البلديات او اللجان المشاعية في مشروع التحريج مع تحديد المناطق الباقية لرعاية الماعز . واختصروا ٣٥ كيلومتراً من الطرق بتوسيع الاكواع او ازالتها . وصلحوا الطريق الساحلية من حدود حمص فطرابلس فالناقورة ، وانشأوا جسوراً منها جسر الدباج شمالي جبيل وفتحوا شارعاً جديداً في صيدا ، وابتدأوا ببناية المتحف اللبناني والبارلمان وبزغت اشعة الاصلاح في ظلمات السجون فافرج عن بعض المعتقلين بمناسبة التذكار السنوي العاشر لاعلان استقلال لبنان ، وارسلت الحكومة السورية الى رؤساء الاديان سألتهم ارسال مرشدين الى السجون . واعدت المفوضية العليا مشروعاً لاسكان

المشاريع الرحل في الجزيرة العليا ستبدأ بتنفيذه من اول العام القادم : بتمليك الاراضي ، على ان تشاد المنازل وتباع تقسيطاً ، وتصفية المياه وجعلها صالحة للشرب ، واستثمار نهر جعجع . ومدت الحكومة السورية يد المساعدة للمزارعين فخفضت رسوم اعشار سنة ١٩٢٩ عشرين بالمئة وسنة ١٩٣٠ ثلاثين بالمئة واجلت الاقساط المستحقة للمصرف الزراعي والمتأخر من اعشار سنة ١٩٢٦ ، ودُشنت دار للحكومة في قضاء الباب ودار للبلدية في قضاء منبج في ولاية حلب ( ١٧ تموز ) . واصبحت القامشلي مركز لواء متصرفية جديدة .

## فلسطين

ان سلاح الصهيونية الادبي الاعظم هو نكرانها على الوطنيين انقساماتهم . فتقول ان الوطن القومي اليهودي لا يمس العرب حقوقهم وليس العرب بامة واحدة . وقد لشعر الفلسطينيون بالضرر العائد عليهم من جراء الانقسام . وكان المسيحيون اول من نادى بالاتحاد فضربوا صفحاً عما نالهم في عهد المظالم والاستبداد وضموا صوتهم الى اصوات المسلمين احتجاجاً على الصهيونيين ، ولبسوا الحداد مع المسلمين على موتاهم الثلاثة المعدمين ، ووقع ارسلان وجابري وعبد الهادي اساءهم على برقية نشرتها مجلة الامة العربية[1] وفيها : لا قوة في العالم تغصب العرب المسلمين والمسيحيين على الملك الذي بين يديهم من ١٤ قرناً . ومن المسيحيين الذين بذلوا جهدهم في شد عرى الاتحاد ، الشاب الناهض والكاتب المعروف[2] جميل البحري .

١) *La Nation Arabe, Juin, 1930, p. 166.*

٢) من مؤلفات جميل البحري :

ترجمة البطريرك كيرلس التاسع – ترجمة واعمال المتربوليت غريغوريوس حجار – الهجوم على البلجيك – تاريخ حيفا – رواية الاختفاء الغريب – الحقيقة المؤلمة – الزهرة الحمراء – الطفل المسروق – اللص الظريف – النرجس وما قيل فيه – الماسة الزرقاء – الوطن المحبوب والمهاجرون اليه – سجين القصر – سقوط بغداد – ظلم الوالد – عبد البهاء عباس والديانة البهائية – على ابواب باريس – على ظهر سفينة – في السجن – في سبيل الشرف – قاتل اخيه – مريم المجدلية – غاية مثل .

وان سيادة المطران غريغوريوس حجار ارسل البحري مع رفاقه للقيام بمهمة في سبيل المصلحة الدينية المدنية فقتله رعاع المسلمين وجرحوا رفاقه ... فمزقوا بيد اثيمة عرى الاتفاق، ولا يزالون في رعاية وذمة زعماء مذهبهم. فهل تتمنى الصهيونية ان تتسلح على العرب بسلاح غير سلاح قتلة جميل البحري ؟ وهل من محالف لها اشد بأساً على الوحدة العربية من الذين مدّوا ظل حمايتهم على المجرمين.

## تركيا

اثار الاكراد الفتنة على الاتراك سنة ١٩٢٦ فكبح جماحهم بقساوة . وها انهم جيشوا ١٠٠٠٠ رجل واشهروا الحرب على الاتراك للدواعي التي منذ القدم دفعت الشعوب الواقعة تحت نير الترك الى شق عصا الطاعة . اعني بها تعسف الحكام وعدم كفاءتهم للعمل في سبيل مصالح رعاياهم . واضطرم القتال بين الفريقين واتصلت شرارته بين ايران وانقره واستدعت الجمهورية التركية سفيرها من ايران ( ١٦ آب )

في ٣٠ آب افتتح خط السكة الحديدية الجديد بين انقره وسيواس.

## العراق

جال الملك فيصل اوربة الغربية ساعياً في اكتساب صداقة حكوماتها طالباً لبلاد العراق دخول جمعية الامم بعد ان خرجت عن الانتداب . وقد تظهر فرنسة ولاءها لملك العراق على ان يتم الاتفاق على تحديد التخوم بين بلاده وبلادنا ، وعلى ممرّ انابيب البترول الى البحر المتوسط . وجاء من لندرة ان العراق ينوي انشاء قانون الخدمة العسكرية الاجبارية على الجميع.

يوم ١ ايلول توفي المؤرخ الالماني ادوار ماير.

ف. ت.